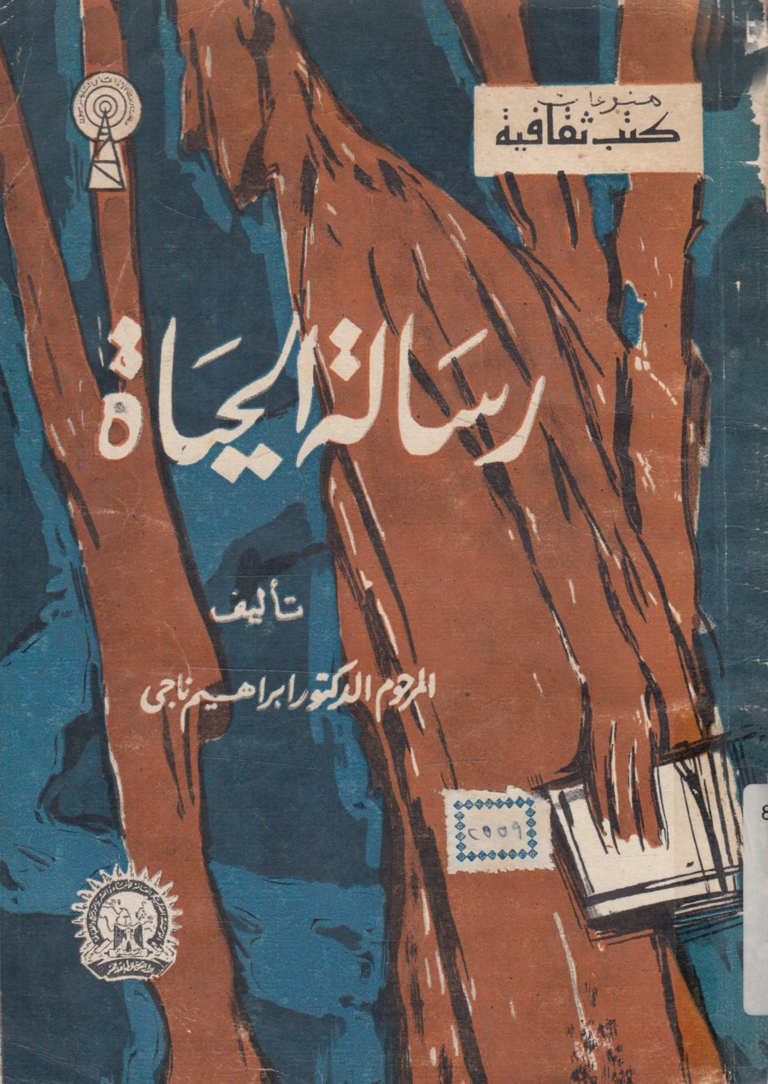


منشورات
كتب ثقافية
رسالة الحياة
تأليف
المرحوم الدكتور ابراهيم ناجى
٢٥٥٩

كتب ثقافية

مكتبة
الدكتور القطب محمد القطب طبلية
فيلا محمد قطب شارع محمد قطب
المعادي



تأليف
المرحوم الدكتور إبراهيم ناجي

مقـــدمة

للطبعة الاولى من الكتاب

بقلم الاستاذ احمد رامى

عرفت ناجيا أول العهد بذكره كما عرفت أحبابى الشعراء فى كل عصر وأمة روحا تزخر بالألم وتفيض بالنغم . وكنت أقرأ له ـ ولم أكن اعرفه ـ على صفحات الجرائد قصائد تمس نفسى وتلهب حسى؛ ويصل مابين روحه وروحى من وشائج العاطفة مايمزج روحين غريبين فى سماء الوحشة اذا التقتا على نغم حزين . أو تأستا على جرح واحد .

وكنت ألقاه لماما ، وأنا لاأعرف أنه شاعرى الحبيب ، فأرى فى لفتته وايمائه ما يذكرنى بالطائر الفزع الذى يحسو الماء رشفة بعد لفتة ، ويحيينى فاذا حب يتبلور فى نظرة ويتألق فى ابتسامة ، واذا به يلقى على من شعرى ـ ولا أعرف من الذى يتكلم ـ أبياتا متلاحقة ربما لا أحفظها أنا بهذه النشوة ثم نفترق وأظل أقول فى نفسى من ياترى يكون ذلك الشقيق للروح ويمضى الزمن فتطلع الجرائد وفيها شعر لناجى واقرؤه وأردده وأنا لا أعرف أن هذا الشاعر الهفاف فى سمائى هو ذلك الحبيب الذى ألقاه حينا بعد حين وأود أن أعرف اسمه .

هذه أول معرفتى بناجى .

أحببته لنفسه ولشعره دون أن أعرف الصلة بين هذين الاثنين .

ثم دارت الأيام وأتيح لى أن ألقاه فى جماعة وسمعت من ينـاديه باسمه فانتفضت ونظرت اليه ونظر الى واذا لقاء روحين . روحى التى سبحت فى آفاق خياله وبكت معه فى مآسيه وغنت معه فى ترنيمه ، وروحه التوءم التى كانت تطالعنى وأنا لا أدرى أى جسد تسكن .

واتصلنا انسانين صديقين فاذا عطفه يغمـر الكائنات حوله واذا بشره ينتشر على السمار كما تنتشر غلالة النور على المرج الفسيح . واذا حديثه أشهى مايكون فى العلم وفى الأدب .

واخرج ناجى من الشعر دواوين كنت التهمها التهاما وارددها انغاما واتمثل بها خاليا وسامرا .

وهو اليوم يقدم للقراء رسالة الحياة ، وهى كتاب بعثه الى خاطره ما قرأ ـ وما أكثر ما يقرأ ناجى فى شتى الفنون والعلوم ـ تناول فيه

أبوابا من المعرفة كل منها يمت الى الحياة بصلة وثيقة ، ويجمع من شملها ماتفرق من أدب رائع وعلم نافع تزخر بهما هذه الحياة العامرة ٠

وهو في هذا الكتاب واسع الخيال واضح الاسلوب ناصع التعبير سهل الابانة يحط على كل غصن في شجرة هذه الحياة فيقطف منها ثمرة جنية أو زهرة ندية ثم ينشر عرفها على الناس فكرة واضحة جلية ٠

وقد قسم رسالة الحياة الى رسائل كل منها في باب من أبواب المعرفة ٠ فبدأ برســــالة الأدب ــ وهو هواه قبل كل شيء ــ فتكلم عن الجمال وعن الواقع والخيال وتناول الشعور والاحساس فقال : ان العاطفة هي الوقـــود وهي الاشراق المنبعث من الفن ووصف مابين العاطفة وبين الفكرة وهي في نظره عمل العقل ٠ وتكلم عن التعبير وهو جوهر الأدب وآيته تأدية رسالة الجمال ٠ وخلص من بحثه الطلى الى أن العمل الفنى مدين للوعى والشعور وأن أجل مايصنع الأديب هو محاولة الخروج عما هو شخصى الى ما هو انسانى ٠

ثم عرج بعـــــد ذلك على البلاغة فقال : انها استعمال روح اللفظ لا ذاته ، وسمى ذلك الموسيقى الباطنية أو الهمس الداخلى وهو في رأيه سر الرمزية وهى المدرسة التى يتكهن لها بالبقاء ٠

وتناول رسالة الحضارة فقال : انها مبنية على تحـــرير النفس من العبودية والأنانية وتحرير الفكر من عبودية الجمود . وتكلم فى رسالة علم النفس عن الشخصية فقال : ان الانسان لم يصبح انسانا الا حـــين أخذ يعرف أن هناك علاقة بينه وبين غيره ٠ وقال عن هذه العـــلاقة الشاعرة المدركة : أنها فجر الشخصية ٠

وتكلم بعد ذلك عن مواجهة النفس ومواجهة الحياة وقال فى علم النفس : ان العثور على العمل والصـــديق يصرف النفس عن التفكير في الهموم ٠

ثم تكلم فى رسالة العقل عن تطور العقل البشرى من فجر المدنيـة الى العصر الحديث ٠ وتكلم عن العقل فقال : أنه وحدة تتكون من ثلاثة عناصر الشـــعور والذكاء والارادة ٠ وخلص من كل هذا الى أن الذكاء الآدمى مكون من عناصر الاختيار والمقارنة وادراك الفروق واستخلاص النتائج والتحليل ثم الابتكار أو الخلق ٠

وتناول رسالة الشباب فتكلم عن التعليم والعقاب والثواب والوعظ ودلف من ذلك الى الاصلاح ، وتكلم عن الطفل ورأى رأيه فى عناده من حيث تقويمه باللين أو بالعنف وعارض فكرة الطاعة العمياء قائلا : انهـــا نوع من العبودية ٠

وتكلم عن دور المراهقة وما يسبقه من مرحلة المنطق وتكوين عقلية الشباب وتكلم عن العقد النفسية وعن علاجها ٠

وسرد أخطاء الشباب : فقال انها الأنانية وحب الصراع والاستهتار والتحدى والاندفاع العاطفى الخيالى ٠

وفى رسالة النقد تكلم عن النقد الأدبـــى وقرر أن الناقد يجب أن تكون له ذهنية الفيلســـوف والفنان معا . وما كان أحلى اقتباســـــه من تشيكوف اذ يقول لأحد أصدقائه النقاد البعيدين عن الجمهور :

« تعال ، اختلط ، استغرق فى الزحام ، تنفس أدبا لكى تعـــرف كيف تنقد أدبا » .

وتناول بعد ذلك فى رسالة الاخـلاق علاقتها بالدين وعلم النفس ، وذكر رأى دارون فى بقاء الأصلح وفرق بين الأصلح فى عـــرف دارون والأصلح للبقاء فى عرفه . وتكلم عن الطبيب فى الحياة وكيف نصل الى اختياره ، وعرض فى رسالة الأدب الروسى الى ثورته على الاتجاهات الأدبية كما عرفها التاريخ الأدبى وتكلم عن الأدب فى ظل العاطفة والعقل وقال : ان الروس أفلحوا فى ايجاد الانسجام بين هذين ، وقال : ان الأدب الروسى اختص بتناول المستوى الروحى وهو الطابع العام لهذا الأدب وانه يبحث فى أسرار الروح وتفاعلها وآلامها وحسراتها . وأســـند الى الروس قولهم : ان هناك وحدة بين قانون العقل وقانون الخلق وأن الذى يغلق سعادته بجميع سعادات البشر لن يجد السعادة .

هذه ومضات خاطفة من شمس هذا الكتاب الزاخر بالنور فى شتى الآفاق من الفكر البشرى بعثها ناجى الى قراء رسالة الحياة ، نجوى وعلما وخاطبهم فيها بلغة الشاعر المبين .

ولئن كنا نعرف ناجيا شاعرا ــ فى طليعة هذا الجيل ــ فان من الحق الآن أن نسجل أنه فى الطليعة كذلك من المفكرين الموهوبين روحا تحس وتعبر عن هذا الاحساس فى أى اطار من التعبير .

أحمـــد رامي

تقديم

عرف الناس المرحوم الدكتور ابراهيم ناجي شاعرا وأحبوا في شعره تلك العذوبة التي كانت احدى خصائصه الظاهرة في حياتهالخاصة وحياته العامة .

وعرف الناس المرحوم الدكتور «ناجي» طبيبا انسانا ، يبذل كل مافي وسعه من أجل شفاء مريض ، أو تخفيف آلام انسان تمسك به علة من العلل ، أو انقاذ رجل صرعته الحياة فلم يعد في استطاعته شراء الدواء أو الغذاء .

وعاش ناجي حياته كالنغمة العذبة ، يقول الشعر انسانا ويداوي مرضاه انسانا ، ويعيش بين أصدقائه وأحبابه انسانا .

وما أعظم كلمة الانسان حين يوصف بها انسان !

وكان ناجي الانسان فنانا مرهف الحس ، رقيق الشعور ، محبا للجمال ، مسرفا في حبه للجمال ، وقد دفعه حب الجمال الى حب الحياة فآمن بأن لهذه الحياة الجميلة رسالة .

وهكذا كتب هذه الصفحات التي أسماها (رسالة الحياة) .

وفي هذه الصفحات صفحة جديدة للطبيب الشاعر ، فقد استطاع كتابة لون من النثر الفني فيه ابداع فوق ابداع ، وفيه براعة فوق براعة . واجتمعت له في هذه الصفحات القليلة خصائص الكاتب المتمكن في أسلوبه ، المتميز بالجمع بين معرفة العالم المدقق ، والشاعر المرهف الحس .

لقد استطاع ناجي أن يجمع ثقافته العميقة ، وعلمه الغزير ومعرفته بألوان مختلفة من المعارف التاريخية والعلمية والفلسفية والسيكولوجية والطبية داخل اطار فني بديع ، وهو في كتابته يجذبك اليه حتى انك لاتستطيع أن تترك كتابه حتى تقرأه جميعا ، وتحس انه يتحدث اليك حديثا لطيفا عذبا لاتحب أن تنصرف حتى تسمعه منه الى نهايته وتستزيده ثم تطلب المزيد مهما طال الحديث .

وهو في هذه الصفحات يحدثك أحيانا حديث الشاعر الأديب ، ولا تكاد تفرغ من قراءة حديثه حتى ترجو منه مزيدا ، ويحدثك أحيانا حديث الفلسفة فيرتد بك الى سقراط وافلاطون لتقضي ساعة ممتعة بلا ملل من تلك النظريات الجافة التي يكتبها مؤلفو الفلسفة فيشق على القراء متابعتها أحيانا ، ويلتزمون الصبر في متابعتها أحيانا . وهو يحدثك عن النقد الأدبي وعن القصة وعن الأدب الأوربي الحديث وعن الأدب الروسي فلا

يبعد به عن طريقته اللطيفة فى الحديث بل انه يتحدث اليك عن الأخلاق فلا يتبدل أسلوبه ، ولا يتغير ، بل انه يظل هو وكأنه يتحدث عن الفن الحديث أو عن بيكاسو .

وهدف الدكتور ناجى ـ غفر الله له ـ هو البحث عن الحقيقة وهو يبحث عن الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الحياة ، ويتنقل هنا وهنـــاك كالطائر الغرد ، خفيفا لطيفا ، مشرق العقل والنفس .

ان هـــذا الكتاب لون من النثر الفنى في أدبنا العربى ، يحسن الوقوف عنده طويلا لانه يحمل خصائص متميزة نجملها فى أنه أسلوب علمى أدبى . وقدر العلم فيه هو قدر المعرفة ذاتها حين تتبلور فى تفكير الكاتب وتصبح عنده معرفة ذاتية اكتسبها من عمق الاطـــلاع ، وكثرة المراجعة ، وحب العلم لذاته .

أما قدر الادب فيه فهو قدر الشاعرية الفطرية التى تملأ نفس الشاعر عذوبة ورقة وتبعد به عن جفاء الطبع وصعوبة التعبير حـــين يريد التعبير .

وفوق هذه الخصيصة المميزة لأسلوب ناجى فى نثره ، فهنـاك خصيصة أخرى هى وضوح الشخصية المحببة الى كل نفس ولذلك فانك حين تقرأ هذه الفصول يخيل اليك أن كاتبها يتحدث اليك فى مرح وخفة وعذوبة ، وانه يشعر فى أعماقه انه لايجوز أن يكون ثقيل الظـل ، ولا يجوز أن يرغمك على سماع كلماته بل يحب لك أن تستمتع بما يلقى اليك من حديث .

وليس وضوح الشخصية وحده كافيا لكى تحب الكاتب فقد يكون الكاتب صاحب شخصيةواضحة قوية ولكنه ثقيل الظل، قوىالعضلات يحب ارغامك على الخضوع لقوته الفكرية وكأنه مصارع ، ولذلك فانك سوف تحب «ناجى» ناثرا كما أحببته شاعرا ، لانه بعيد عن ثقل الظـل وقوة العضلات ، بل هو انسان لطيف عذب الحديث واسع الثقـــافة لايرغمك على رأى ، بل يقول لك مايراه ويعتقده ويتركك لنفسك متأملا مفكرا .

رسالة الحياة

هل نتحدث عن الحياة ورسالتها أو عن الحياة ورسالة أبنائها ؟ ان كان الأول فنحن أمام حديث بيولوجي هام ٠

نحن أمام الوجود وأسراره ، أمام ميلاده ونهايته ٠
أمام السؤال المحير : كيف جاءت الحياة ؟ ولم ؟

وأمام سؤال محير آخر : هل الحياة جاءت مصادفة أو هي من عمل عاقل مبصر مدبر ؟

وسؤال آخر : هل الحياة على هذه الأرض حياة خاصة بأهل هـــذه الأرض أو هي جزء من نظام عام ، وبعض من كل ؟

نتحدث عن القسم الأول من موضوعنا : أي الحيـــــاة وطبيعتها ومنشئها ، فلا شك أننا اذا فهمنا شيئا ولو قليلا من ذلك اللغز الكبير الخفي ، أمكننا أن نجيب في شيء من اليقين عن رسالة أبنائها ٠

اذا أقررنا نظـــرية دارون من حيث آليتها وميكانيكيتها اعتقدنا أن الحياة« ترس ساعة » أدارها يـــد ، ثم تركتها وشأنها دائرة أبدا .. وتتلخص هذه النظرية في أن الحياة أسباب ومسببات وضرورات ٠

ولكن برجسون الفيلسوف الفرنسي الشهير ، تتلمذ أولا على دارون ، ثم ثار على عرشه وزعزعه . وكانت ثورته بالأخص على هذه الآلية التي بنيت عليها الحياة ، وأخذ يدلل في قوة ومنطق وبيان قويم ، على أن وراء الحياة « وثبة » تدفعها لهدف بعينه وهو الكمال ، فمن هنا يلتقي هدف دارون وهدف برجسون ، ألا وهو « الكمال » فالحياة تنتخب الأصـــلح وتدفع الانسب الى الامام ، وتطوى الضعيف وتهدم المتخاذل المزعزع ٠٠ ولكن كلمة « انتخاب » اذا تدبرناها ، عرفنا أن هذا لا يمكن أن يحدث جزافا .. والا فأي قوة آلية يمكنها أن تميز بين الأصلح وغير الأصلح وبين الأحسن والأسوأ وبين الأقوى والأضعف ؟

فهذه القوة العاقلة المنتخبة ، اذن تعنى بالحياة لأنها تســـير بها من حسن لأحسن ، وتتخطى بها عقبة بعد عقبة ، وتساعدها على النمو باطراد ٠

فهي اذن قد كفلت لها أسباب البقاء ، والا فما معنى المحافظة على شيء زائل ٠٠٠٠

فالمسألة ليست اذن مجرد خلق ، ولا مجرد شعلة لمعت اعتباطا ! والا انهار « المخلوق » ابن المصادفة وخبت الشعلة وليدة الأقدار ! ولكن

الذهن المدبر الذي خلق هذه الحياة ، تفنن في الطرق التي تكفل استمرار الحياة ، والتي تضمن لها البقاء ..

فرسالة الحياة اذن استمرار الحياة .

وقد ضمن للحياة أن تستمر شيئان :

(١) قطبها ومحورها وهو الجنس .

(٢) ضدها ومفنيها وهو الموت .

أما أن يكون الجنس محورها وعمادها وضامن استمرارها ، فليس بعجيب . فقد تفننت الطبيعة في ذلك تفننا ما عليه من مزيد .. والمطلع على كتب علم الحياة ، يرى كيف تتهافت المخلوقات البدائية على التناسل تهافتا جنونيا . ونحن اليوم وان تغيرت صور الحياة وأوضاعها ، لانزال نؤمن أن الحياة تقوم على نوعين من الحاجة ، الحاجة الى الطعام ، والحاجة الى الجنس ..

أما تحصين الحياة بضدها وهو الموت فهذا هو المعجزة التي مابعدها معجزة للتدليل على أن هذا الخلق وليد قوة خارقة فان الموت يحصن الحياة من التكاثر المطلق الذي يؤدي الى افنائها بتطاحن أبنائها وتقاتلهم على الحطام . وبذلك يصونها ..

والآخر أن تحديد دورة الحـــياة بحتمية الموت ، هو التسبب في الاختراعات بأنواعها وفي الاتيان بأروع الأعمال في تلك الحقبة الصغيرة من عمر الزمن وفي الجري وراء الرزق ، وفي طلب النسل أي في كل ماهو قيم ونافع وجميل . يمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة ، فالحياة تسعى الى البقاء ، وتهدف للكمال **فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال ..**

وحين أقول « أن يتعاونوا » أعني كلمة التعاون بأوسع معانيها . رسالة الحياة الكبرى انما هي في هذا التعاضد والتكاتف لبلوغ الغاية .

ان المجهود الفردي مهما عظم لا يقيم الا حجرا واحدا في البنـــاء الضخم ، ولكن أبناء الحياة ــ وهم متكاتفون ــ يمكن أن يبتنوا كل يوم هرما خالدا ...

ان العمل من جانب واحد ، يخل الميزان ويهوى بكفة منـــه ، على حساب الأخرى ... فاستقرار هذا « الميزان » هو الغاية التي يجب أن ننشدها حيثما التفتنا ...

فاذا نظرنا الى علاقة الفرد بباقي الأفراد علمنا قيمة هذا التوازن في العلاقات الآدمية .

واذا نظرنا لداخل النفس وجدنا أن سيكيية النفس وصلاحيتها تتوقفان على توازن القوى الداخلية ، وفي المجموع ، يتضح لنا أهميــــة التوازن الاقتصادي ، فهذا هو أســـاس الرخاء وأصل الأمن ، ومنشأ الحضارات الزاهية ولا سبيل اليه الا بتكاتف الأفراد معا على استقرار الميزان .

تلك رسالة الحياة .

رسالة الادب

اذا رجعنا الى اللغات القديمة ، وجدنا أن كلمة أدب مشتقة من أدب المحرفة الى آدم أى الانسان ، فتكون رسالة الأدب ، رسالة الانسان وهذا معنى فى منتهى الطرافة فانه يحدد فى الحال رسالة الأدب حين يجعلها مسألة انسانية محضة :

فاذا رجعنا الى هذه الكلمة فى الاسلام وجدناها ترد بمعنيين : الأول بمعنى التهذيب« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »والآخر بمعنى الدعوة «هذا القرآن مأدبة الناس فى الأرض » والأصح أن هذه الدعوة ، هى دعـــوة الناس الى التلاقى ، اما على مادبة الطعام ، واما على غرض خلقى نبيل ، وهذا مايدعو اليه الحديث الآخر بلا جدال · أى أن القرآن يجمع الناس على مأدبة الخلق والحق ·

على أن هذه « الدعوة » امتد ظلها ففقدت التركيز والتحديد ، فصارت دعوة الى المعارف عامة ، بصفتها وسيلة من وسائل التهذيب · حتى صارت المعلومات الطبية أدبا ، والمعلومات الفقهية أدبا · (literature)
لكن العرب وقد ســـبقوا غيرهم فى هذا ، ســـارعوا فحددوا موقفهم من كلمـــة الأدب ، فقسموها الى أدب النفس (التهذيب) وأدب الدرس (المعرفة) فاذا تركنا أدب النفس جانبا ، والتفتنا الى أدب الدرس الذى أخذ بتطور العلوم والمعارف والثقافات يطغى على النصـــف الأول لمعنى كلمة الأدب حتى كاد يمحوها من الاذهان ·· وجدنا سؤالا واحدا يصاحب هذا الظل الممتد ، وهو هذا : هل النثر والشعر والتاريخ جميعا تستحق أن تسمى أدبا ؟ بالطبع كلا · يجب أن يقتصر الأدب على لـــون خاص ، ذلك هو المأثور منه ، وبعبارة أخرى الذى له طابع البقاء permanence وماذا نسمى ذلك الأدب الخالد ؟ نسميه الأدب الرفيع ، ويمكن أن ينضم تحت لواء ذلك الأدب الرفيع الآثار الباقية من الموسيقى والغناء والعمارة ، مادامت هذه كلها من أصول واحدة ، ولا تختلف عن الأدب البيانى الا فى كيفية التعبير ، وهـــذا « الأدب الرفيع » هو بعينه ما أسماه أهل الغرب « الفن » ، وهى كلمة حديثة جدا فى اللغة العربية ، وهى فى القاموس تعنى الأسلوب أو الطريقة أو الاتقـــان أو التنويع ، والفنان هو حمار الوحش لانه يجيد فنون العدو ، والمفن هو البارع الكثير الحيل ·

وهنا يتناول أهل الغرب مسألة الادب من حيث كونها « فنا » فيقولون : ان رسالة الادب كرسالة الفن « البحث عن الجمال » ··

فالأدب على ذلك ، هو الفرع من الفن الذى يصل بنا عبر قنطـــرة

الكلمة الى حيث نرى ونؤمن بالجمال ٠ ومن هنا يحسن أن نعرف الأدب تعريفا قويا ذا شعبتين : فهو من ناحية صلة بين الواقع والخيال ، ويمكن للاثنين أن يلتقيا فى المعنى اذا اعتبرنا الطبيعة فى نفسها حقيقة جافة تحتاج الى مترجم وشارح ومتخيل هو الانسان ٠

ولكن : هل كل انسان يستطيع أن يكون صلة بين الطرفين ؟ أين الذى يحسن الوساطة ويجيد النقل والترجمة والشرح والتفسير والاخراج ؟ وأين الذى يجيد التوصيل ، مضافا اليه شعوره الذاتى ، وانفعاله أمام التجربة ، واحساسه بالجمال المنطوى كما هو بعصبه ولحمه ودمه ؟ ياعجبا ! وهل هذه الطبيعة محتاجة الى شرح ؟ الجبل ، السماء ، الصحراء ! أجل ! ان الأديب هو الذى يخلع على هذه وتلك الحركة والحيوية ويلبسها رداء الخيال ، ويغمرها بالعاطفة فلو كان الكلام جميلا بذاته ماكنا فى حاجة الى الغناء ولو كان المشى جميلا بذاته ماكنا فى حاجة الى الرقص ولو كانت الطبيعة جميلة بذاتها لاكتفينا بنقلها بالفوتوغرافيا !

ولو كان فى تساقط المطر لحون كاملة ، ولو كان فى همس النسيم نغم تام ، مااحتجنا الى الموسيقى ٠

أكرر فأقول : ان الفنان يشيع فى هذه العناصر الطبيعية العاطفة والخيال والحركة والحيوية ويغمرها بالألوان ، أو يسبغ عليها عطورا خاصة ، وكل الفنون مشتركة الأصول فى هذا فنحن نقول بيت الشعر وألوان الموسيقى ، وموسيقى الألوان ، ثم نحن فى الوقت نفسه نجمع الشعر الى الموسيقى الى الرقص لنجمع العاطفة الى الفكرة الى الحركة الى الخيال الى الحياة ٠٠

أما العاطفة فهى الوقود الذى يغمر العمل بالضوء ، فهى الاشراق المنبعث من الفن ٠ أما الفكرة فهى عمل العقل أو الصنعة ، وأما الحركة والخيال فهما صفتان من صفات الحياة ، ومنها يمكن أن يعرف الأدب بأنه « التصوير الخيالى لحقائق الحياة » ٠٠ أو « المحاكاة الخيالية لحقائق الحياة » ٠

ولما كان من آيات الحياة التكرار والعودة ــ فان القلب يكرر نبضاته ، والقدم تكرر خطوها ، والمواسم تتعاقب ، والطيور تهجر ثم تعود ــ فاننا نجد فى طبيعة الفن مهما اختلفت أنواعه ، الخطوات المعادة والنماذج المتكررة واللحن المتجدد ، والخطوط المتساوقة ٠٠ هذا « الايقاع » rythm هو المخدر الأول الذى نامت عليه أعصابنا ونحن فى المهد اذ تغنينا أمهاتنا ٠

وهو هو بنفسه الذى يأسرنا ونحن كبار فيخدر حواسنا فنستسلم للشاعر أو الموسيقى أو الرسام لنتركه يتصرف بنا كما يشاء بعد هذا المخدر الطبيعى الأصيل ٠

ومن هنا ندرك لماذا قد نتأثر بالشعر حين يلقى ، فى غير لغتنا ، وبالموسيقى ونحن لا نلم بأصولها ؟

الوظيفة الأولى للأدب أن يكون مصورا حقيقيا خياليا ، أي بعبارة أخرى أن يعبر عن الواقع ، بالمجنح الطائر بوساطة العاطفة والفكر :

أما الوظيفة الثانية فهي أن يمد الأديب يده الى دولاب الحياة الدائرة ، فيوقفه ، بخيالاته وتأملاته اذا شئت ·· ليقتطع منه منظرا أو فكرةأو حادثة، يستخلصها ليختزنها فيعقلهالباطنليخرجها يوما الى العالم مضيفا بذلك للكواكب كوكبا جديدا الى سماء الخلود au ciel de fixes .

ولكن من هذا الأديب الذى يستطيع أن يمد يده الى الزمن الدائر فيقتطع من عجلته شيئا ثابتا خالدا ؟ ثم من ذلك الذى يستطيع أن يميز فى الفلك الدائر السريع ما هو جدير بالاستبقاء ؟

الصفة الأولى فى ذلك الأديب هو مانسميه تجاوزا شدة الحساسية ، ويسميه علماء النفس التماس الواعى مع الحياة والأحياء والتماس الواعى معناه أن مهمازا يشك قلبه ويفتح عينه ويلهب حسه ويوقظ روحه ، فاذا كانت الحياة هى « الوادى الذى تنضج فيه الأرواح » على رأى كيتس فانها انما تنضج عن طريق الألم وعن طريق الدموع ، عن طريق الشوك ، عن طريق التماس الواعى الذى أشرت اليه · على أن الأديب الذى أشير اليه يمتاز بالبصر ، بل بالبصيرة ، ويسمى بالفرنسية un visionnaire صاحب رؤيا ، وهى كلمة ملائمة جدا · ومعناها أنه رجل يبصر وراء الأشياء حقائقها البعيدة أو يراها مكبرة أو يراها مغمورة بأضواء خاصة ، أو بعبارة أخرى ذات رموز ومعان وايماءات وأخيلة تهيب به وتدعوه · هذه الدعوة هى التى أشرت اليها فى أول الحديث ، والتى هى العنصر الأول فى الأدب لفظا ومعنى ·

أما استجابة الأديب لهذه الدعوى فكيف تكون ؟ تكون بصرخة ذات لون من ثلاثة ··· دهشة أو دمعة أو ضحكة · ·

فنحن نرى اذن أن هناك بصيرة ، فالتماسا واعيا ، فنداء فصرخة ، فاستجابة وهذه الاستجابة هى مانسميه « اللفتة الذهنية » ، وهى كلمة ملائمة جـــدا ، ولو حللناها لوجدناها تعنى أن العـــاطفة تلجأ الفكر مستعينة به على كيفية الاستجابة · كيفية الاستجابة أو بعبـارة أخرى « عملية الأدب » مسألة جديرة بالنظر لأنها نهاية المرحلة وثمرة المجهود ، ومما هو واضح أن هاته الرواية من بصيرة الى صرخة الى التفاتة ذهنية ، يمكن أن نطلق عليها اللحظة الانفعالية ـ هى فى الواقع مشروع رواية تتطلب الاخراج والظهور على المسرح ، رواية غايتها الوضوح ، لتجد سبيلا الى الاقناع والمشاركة والتمتع بالتلاقى مع الآخرين فى صعيد وجدانى واحد ·

فمن ثم يتضح لنا أن عملية الأدب هى « التأثر بتجربة ما ، تأثرا خاصا والامتلاء بها امتلاء عنيفا يلح الحاحا باطنيا فى ابراز هذه التجربة مغمورة بالضوء الذى أبصرته فيه جالســة على عرش من الشعور الذى اكتشفها متكلمة بلغة خاصة تحمل تفسيرا خاصا ، وشرحا خاصـا ،

وسبيلا للاقناع خاصا يجعل المشـــارك فى التجربة يرى ويفهم ويؤمن ـ بالجمال الكامن خلف كل شيء في الوجود من الصغير الى الكبير » ..

فالأدب اذن ومضة من ومضات البصيرة تدعو الى التعبير ، ورسالته السمو بالنفس عن طريق الجمال ..

فجوهر الأدب اذن في التعبير ، فكيف نعبّــر تعبيرا تكون آيته تأدية رسالة الجمال ؟

يمكن أن نلخص السلسلة وحلقاتها كالآتى : تجـــربة ـ بصر ـ بصيرة ـ صرخة ـ استجابة ـ اختزان فى العقل الباطن ـ ترجمـــــة ـ تفسير ـ ترتيب ـ اخراج ـ توصيل ـ ويمكن اختصارها فى **تجربة ـ تعبير ـ توصيل** .

فلننظر الآن فى التجربة الأدبية . التجربة اما أن تكون حادثة أو فكرة أو منظرا .. ولكنها على كل حال ، تجربة غنية بالأضواء والصور والرموز ، تجربة متعددة الأجزاء ، كل جزء له قيمته من حيث انه وحـدة فى كل متناسق ، وزيادة على ذلك فعاطفته التى تثير التجربة عاطفة من لون خاص ، فالعاطفة تتميز بالصدق الذى هو اقتناع قلبى مرتفع على قاعدة من « الحماسة القوية » فليست العاطفة الصـــــادقة اذن انفعالا متصنعا ولا نواحا ولا ندبا ولا عويلا ، بل هى نوع من الانفعال المكظوم ، نوع من الألم الجبار الذى أمكن للنفس القوية مهادنته وحبسه فى جـو من الهدوء ، ومن ثم تكون نوعا لا يستثير الألم والعذاب وانما تكون ضربا من العزاء والشقاء ، ولقد قال كيتس معاتبا نفسه وموضحا معنى «العاطفة العبقرية» من أنت ؟ أنت حـــالم تعيش فى حمى ، انك تثير آلام الناس وسخطهم ولكن ليس لديك البلسم الذى تلقيه فوق متاعبهم وآلامهم .. «ما أضيعك » !

هذه العاطفة العميقة بمثابة اللهب الذى يضفى على التجربة الظلال والأضواء والأصباغ ، وهو الذى يقسمها أجزاء ، ثم هو الذى يؤلف بين أشتاتها ، وهو كذلك الذى يخلع على التجربة النبض والحياة .. وقـــد تقول بالأصح : ان العاطفة العميقة تثير الخيال الذى هو فى الواقع اليـــد الساحرة التى تقوم بكل هذا .

أما الشرح السيكولوجى لهذا ، فهو أدق وأكثر توضيحا ، وخلاصته أنا نعيش فى ثلاثة عوالم ، العالم الخارجى ، والعالم الشعورى ، والعالم اللاشعورى ، أى عالم الحقيقة وعالم العاطفة وعالم الخيال .. وهـــذه العوالم فى دنيانا العملية تكاد تكون منفصلة تماما ، أو على الأقل بينها اتصال غير كامل :

أما العالم الخارجى فمنه المادة التى تعطينا التجـــربة ، ففى لحظة الانفعال تنزاح الفواصل بين عالم المادة ، وعالم العاطفة ، أى ، يزول مابين الوعى ، وغير الوعى ، ففى هذه اللحظة المتاحة تستوعب التجربة صـــورة موحدة ، وانموذجا كاملا ، ولاتلتقط مهلهلة الأجزاء مبعثرة الأشلاء ، ولا

مبتورة التفاصيل ، فاذا انزاحت الفواصل بين الشعور واللاشعور ، فان اللحظة الانفعالية تصير حالة انفعالية ممتدة الزمن ، وزيادة على ذلك فان الانفعال يستوعب التجربة كخليط معقد الجوانب ، وهذا ما يجعله مثيرا ومشتعلا ويجعل الأديب متوثبا لاستيعاب الانفعال والسيطرة عليه ، فهنا يختلط الواعي بالباطن ، فيطفو الأخير بأحلامه وضـــبابه وخيالاته فى الشعور ، وفي هاته اللحظة نحس بالحاجة الى التعبير ، ولكن الشعور تحليلي في نزعته ، بعكس اللاشعور فهو تركيبي ، فعلى ذلك يحيل الأول التجربةالىالآخر الذىيعيد تركيبها . علىأنهذا الآخر اذ يعيدها ، انما يعيدها ومعها فروق وتدرجات وألوان وأصباغ وأضواء وظلال كالآفاق التي تبدو في الحلم سواء بسواء ، وذلك لأن الباطن طبقات وامكانيات ، وهو يعطى بالتدريج ويغرى باقتحامات جديدة ، فالتجسد الاول للتجربة أى التجسد الشعورى تضخم متعب قد يؤدى الى الانتحار أو الجنون .

أما التجسد الثاني فهو مخفف تدريجي يطفو فى وسط الألوان والأضواء ، وفيه شعور كذلك بالتحرر من قيود العرف ، ولذلك يكون عمله فى الأغلب فى هدوء الليل وبعيدا عن الناس .

على أن هذا التحرر ، أو بالأصح اختلاط الواعي بالباطن واتفاقهما على كيفية التعبير يصاحبه امتزاج المدركات الحسية جميعها ، من حس الى فكرة الى عاطفة ، ففى عـــــالم الأدب يمتزج البصر بالوجدان بالفكرة ، فتقول : عينان فرحتان ... امتزاج حس ووجدان ! والنحت حسي لمس فقط ، والموسيقى سمعي عاطفي — ولا يستثار الاحساس بالجمال الا بالتئام الوجدان مع المدركات الأخرى .

يتضح من هذا أن العمـــل الفني ، مدين في جزء كبير منه للوعى والشعور ، ولذلك يتبين ان العبقرية والقول بالسليقة وحدها لانتاج العمل العبقرى ، قول على غير أساس .

ويتضح من هذا التحرر السيكولوجي أن المسألة محاولة ازالة فواصل ، فمن الباطن الواعى الى الخارج وبالعكس ، معنى ذلك أنها عملية « افضاء » أى توصيل — وبعبارة أخرىالخروج عما هو شخصيالىماهو انساني وهـــذا هو غرض الأديب ورسالته ، ولـــكن مادام اللفظ هو الوسيلة لهذا الافضاء فما مركزه في هذه الحلقة : اللفظ عليه أن يؤدى الصورة مستعينا بالخيال والزمن والموسيقى .

أما الموسيقى ، فقد سبق أن قلنا انها العصا السحرية ، والوسيلة للاقناع القلبى الذى تحدثت عنه .

وليس أبدع من لغتنا العربية فى التحدث عن اللفظ الفنى : فيقال مثلا أن المجاز « هو تجاوز اللفظ الى ما لم يقصد به القاموس » .

ثم تقول كتب البلاغة : ان الكتابة لون من ألوان التشبيه المركز ، منه التلويح والايماء والرمز ، على حسب ظهور العلاقة أو النسبة أو اختفائهما .

أي أن العرب أوصوا – للوصول الى قمة البلاغة باستعمال روح اللفظ لا اللفظ ذاته ، فسبقوا المدارس جميعها ، من رمزية وغير رمزية مما سمعنا عنه في كتب الغرب .

هنا أقف لأتحدث عن « روح اللفظ » : ان اللفظ المباشر قد يكون جميلا فاتنا ، رائع الجرس متسق الرنين .. كما نرى هذا على أحسنه عند البحتري في أدبنا وفي سوينبرن عند الانجليز – فتكون الموسيقى رائعة وآسرة ، ولكني أحذركم هذه الموسيقى التي تعتمد على اللفظة المباشرة ، فانها خداعة ، تستولي علينا كأننا عدنا أطفالا في المهد .

أما استعمال « روح اللفظ » أو استعمال اللفظ بموحياته وظلاله وتأثيراته ، فهذا هو الذي يحدث مايسمى الموسيقى الباطنية ، هذه الموسيقى – هذا الهمس الداخلي – هذا الايحاء البليغ ، هو سر الرمزية وقوتها وثباتها ، والأمل في أن تصير المدرسة الوحيدة الباقية في المستقبل .

اني أتحدث عن الادب عامة بقسميه من نثر ونظم ، ولكني أقول ان هذه الصفات التي شرحتها تنطبق بالاكثر على الشعر : الذي هو أعظم الكلام في أعظم مواضعه ...

أما النثر فقد يبلغ مبلغا كبيرا من الاجادة ، ولكنه سيظل دائما معتمدا على المنطق ، والقياس ، والوضوح والهدوء ، والاتزان ، وسيخلو من مميزات الشعر كالعاطفة المحضة ، والغموض الجميل ، والحماسة المركزة ، والايقاع المرقص ، واللفظ المجنح الموحي .

هذا هو السحر

غاية الفن تعميق الاحساس وهز المشاعر فيعمق الاحساس ويهتز الشعور حتى يتحولا الى رجفة بدنية يعرفها كل انسان أحس بالطرب أو شجاه الحزن • كأن أعماقا ساكنة تحركت ، كأننا شعرنا بشيء يحررنا من أعماق الواقع وينقلنا لعالم غريب علينا •

ويصل الفنان الى غرضـــــه عادة عن طريق « شكل » من الاشكال خطوطا أو أصواتا أو كلمات ذات ترتيب خاص يتجاوب مع آخر خفي في أعماقنا • ويقوم الشعر كما يقوم النثر على « الكلمة » ، فما الكلمة ؟

انها معنى وصوت ، منطق وموسيقى ، تعبير له جرس ، كلام له رنين ، هى « المادة » التى تكسو خواطر الفنان • ولكن العمل الأصـيل للكلمة هو الوقع المنطقى ، وهذا هو النثر ، حتى أن كلاتن بروك يقول : النثر « هو العدل » أى الافضاء بحق وصدق • ولكن هل تخلو كلمة من لونها العاطفى ، أى من ايقاعها الخاص ، أى من رنينها وموسيقاها ؟

ان أعاظم الكتاب المتفوقين فى النثر استغلوا هذه الميزات فى الكلمة كل الاستغلال • ولكن هذا النثر على جماله وعلوه ، احتفظ بأنه نثر ، ولم يصل لمرتبة الشعر •

لم هذا ؟

ان الكلمة عند الشاعر ليست حبرا على ورق ، ولا مجرد لفظة فى فم • انما هى جنين يتكون فى العقل الباطن ، ينمو حتى يصير مخلوقا عضويا كاملا • مخلوقا مكونا من أفكار وآلام وآمال وأحلام • ان كلمة الشاعر حلم حى مجسم نابض يضـــم فى ثناياه عالما حافلا بالذكريات والصور والخيالات • ولان هذا الجنين نما فى أعماق الفكر وتكون فى الدم والاعصاب فان الشاعر يهمه أن تراه جيدا وتتأمله جيدا ، وتفهمه جيدا ، وتهتم به جيدا • ووسائله فى ذلك وسائل الساحر والمنوم ، فهو يختار لك اللفظ العجيب الذى يذهلك ويسحر حواسك ويحيرك ، ولذلك فان كلمة الشاعر الكبير تنبع من الحس وتتصل بالحس ، فهى تثير نظرك أو شمك أو لمسك • فترى للكلمة لونا ، وتشم لها عبيرا ، وتكاد تلمسها بيديك ، ولذلك قيل : ان الشاعر يلون صوت الكلمة . وما التشبيه وما الاستعارة الا اقتران الكلمة بشيء حسى يسترعى حواسك اليه • فالقمر ليس هو صفحة بيضاء عادية ، بل زورق سابح فى عباب السماء ، والربيع ليس مجرد لون أخضر ، بل بساط سندسى وهكذا ••

هذا هو السحر ••

أما التنويم فباستغلال الموسيقى أكبر استغلال ٠

اما بترتيب الكلمات والأحرف ، واما بالايقـــــاع ٠ ثم يلجأ الى التداعى ، لا ربط كلمة بكلمة ، بل ربط كلمة بعاطفة ، بل منظر حسى يثيرك ويركز اهتمامك عليه وفيه ٠٠

ويخيل لى أنه كانت فى الأزل ألحان ، وكانت خطوطا وان سماعها أو رؤيتها الآن تحرك صدى بعيدا ساكنا فى أعماقنا من الأبد ، بدليل أن القطعة الموسيقية الرائعة أو القطعة الشعرية الخالدة تحدث أثرها وتوحى بعظمتها دون الحاجة الى نوع خاص من الثقافة أو العلم أو الادراك ٠٠٠ هناك ذلك التجاوب الخفى المجهول وهو يكفى ٠

على أن كل فن يستعمل « المادة » التى يشرق من خلالها ٠

ومن الفن ما هو فراغى ، ومنها ما هو زمنى ٠ فالفراغى ســـــاكن يسجل ماهو كائن وثابت فى لحظة ما ٠ ومن الادب زمنى فراغى يتحرك فى الزمن والفراغ مسجلا ما هو كائن وما سيكون ٠ وهذا سر قوته ٠ وهو الفن الوحيد الذى لا يعبأ كثيرا « بالمادة التى تكسوه أعنى أنه يتخطى حدود الوظيفة العملية المرسومة للكلمة الى ما هو أبعد من نطاق مهمتها المعروفة أعنى الى عالم العاطفة والخيال ٠

فالأديب لا يتكلم عن « الشىء » وانما « الى » عواطفنا فيما يختص بهذا الشىء ، وهو لا يخاطبنا بالكلمة ذاتها ، بل بالظلال المحيطة بالكلمة ٠ بالأجنحة المركبة فى الكلمة ، والتى يراها هو وحده ٠ هذه الظلال ـ هذه الاجنحة ـ التى ترتفع بالكلمة من الارض وتسمو بها ٠ والفنان لا يهمه أن تصدق الكلمة بقدر ما يهمه أن تكون قوية ٠ القوة غايتــه وطلبته ٠ وما هـــذه الظلال ؟ انها تلك السواعد السيكولوجية التى بها « ينبش » الفنان ظواهر الأمور ليستنبط أعماقها ٠ وهى بعينها الأيدى التى بهـــا يجلو الصدأ من المعانى التافهة والرواسب المتكاثفة ويبدى لنا الجوانب اللامعة المشرقة فى الحياة والاحياء ٠

قال بوب يصف الشاعر :

« هو ذلك الذى يستطيع أن يحشد فى صدرى ألف ألم ويشعرنى بكل خالجة فى صدره ٠

يشعرنى بالغضب والرضا والاشفاق ٠

يمزق قلبى رعبا ٠ يلقينى على الثرى

يقذف بى فى الهواء ٠٠

يحملنى الى طيبة ٠٠ الى أثينا ٠

متى شاء وحيث ، وكيفما شاء ٠

رسالة الفلسفة

ساعة مع سقراط

لم يعن سقراط بتدوين آثاره الفكرية بين دفتي كتاب . لأن عصره لم يكن عصر كتب بل عصر مسرحيات ، ولأن شغل العباقرة بالقيام برسالتهم، قد يصرفهم عن تدوين مافى سجل حياتهم من أعمـــال • ولأن للعباقرة شخصيات قد تفوق كل ما يكتب عنها ، بل ان القلم ليخجل عندما يجد نفسه عاجزا عن وصفها ، قاصرا عن الاحاطة بذلك الشيء المجهول الذى يكون الشخصية العبقرية • ولكننا لحسن الحظ نجد فى كل زمان من المؤمنين بهذه العبقريات ، من يلذ لهم أن يعيشوا فى ظلالها ليسجلوا كل كبيرة وصغيرة فيها • ولقد ذكر المؤرخون شبها كبيرا بين سقراط الاثينى وجونسون الانجليزى : فقد وجد سقراط فى تلميذه أفلاطون شارحا أمينا ومريدا ذكيا ، كما وجد جونسون فى صديقه بوزويل ظلا مخلصا حريصا كل الحرص على تدوين كل شاردة وواردة فى حياة صاحبه وأستاذه • ولولا ذلك لاندثرت معالم سير العظماء ، وضاعت التفاصيل الدقيقة التى تدل أبلغ الدلالة على عبقرياتهم ، والواقع أن هـــذه التفاصيل اليومية لأساليب العيش قد تكون رائقة فاتنة فى اصالتها أو شذوذها •

ولقد يكون من الطريف أن يتناول أكثر من واحد حياة العبقرى ، فيصورونه من زوايا مختلفة • وهذا بالضبط ماحدث لسقراط ، فقـــد تناوله أفلاطون تناولا أدبيا وفلسفيا ، وقد تناوله أرستوفان فى كوميدية السحب تناولا يدور حول شخصيته التعليمية ، وتنـــاوله زينوفون فى مذكراته ، تناول المحامى الذى يدافع عن موكله •

أما أفلاطون فقد جعل من محاوراته التى تدور حول سقراط جدلا مثاليا ، يرفع سقراط الى الذروة من الحكمة والتفكير • حتى اتهم أفلاطون بأنه يلبس قناع سقراط ، وأن هذه الروائع التى تتسلسل فى المحاورات انما هى أفكار أفلاطون ، لا أفكار سقراط .

أما كوميدية السحب عند ارستوفان فقد حضرها سقراط بنفسه. وكان قد قارب سن الخمسين فلم يضـــايقه أن يتندر به أرستوفان وتعمد أن يقف فى مقصـــورته ليلة التمثيل ، ليرى الناس حقيقة ذلك الذى تندر به أرستوفان على المسرح . ولقد ظل صديقا لأرســتوفان وكانا يشاهدان معا فى ألفة ووئام .

على أن هذه المسرحية كان لها أثر بالغ فى أيام سقراط الأخـيرة ، فقد رسب فى الأذهان عامة وفى عقول المحكمين خاصة فكرة خاطئـــــة

مشوهة عن سقراط وتعاليمه أساسها هذه المسرحية التى لم يقصد بها ارستوفان غير التندر والفكاهة ·

أما زينوفون فقد كانت رسالته التى يدافع بها عن سقراط دفاعا يجرده به من كل عبقرية وأصالة ويضعه فى مصاف الرجال العاديين الطيبين الذين يعيشون ويموتون وهم لم يأتوا ، ولم يحاولوا أن يجيئوا بجديد ، فيتعين اذن على الباحث أن يقرأ كل هذا معا : محاورات أفلاطون ، ومذكرات زينوفون ، ومسرحية السحب لأرستوفان · وذلك لان أفلاطون وصاحبه لم يعاشرا سقراط الا فى المرحلة الاخيرة من حياته ، على حين كانت معرفة أرستوفان به معرفة تتناول شطرا من حياته لم يره الاولان وانما سمعا به ·

على أننا لا نشك فى أن محاورات أفلاطون هى أهم مراجعنا عن سقراط · واتهام أفلاطون بأنه هو كاتبها اذ تخيلها غير قائم على حقيقته · فان الاجزاء الاولى من المحاورات يتوسطها سقراط ، والتى تليها لا نراه — أى سقراط — وانما نسمع عنه ، وفى الاخيرة ، لا نسمع أفلاطون يتكلم فأفلاطون اذن لم يكن فى حاجة الى التخفى وراء قناع غيره ·

نحن لا نعرف بالضبط متى ولد سقراط ، ولكننا نعرف تاريخ المحاكمة الشهيرة ، ونعرف من ذلك أن سقراط كان اذ ذاك فى السبعين من عمره تقريبا · فنستطيع أن نستنتج أنه ولد فى أثينا سنة ٤٦٩ قبل الميلاد · ويمكن تقسيم حياته الى مراحل ثلاث : من ميلاده حتى الحرب بين أثينا واسبارطة ، وفترة الحرب ، ثم أخيرا ، بعد هذه الحرب حتى محاكمته ووفاته ·

ويمكن أن نسمى المرحلة الأولى مرحلة التعليم والثانية مرحلة الوحى والثالثة مرحلة الرسالة · ولما كانت حياة العظيم وثيقة الصلة بما جرى فى وطنه ، فان المرحلة الاخيرة أهم المراحل فى رأينا ، لان سقراط اشترك فى أثنائها اشتراكا فعليا فى شئون الشعب اليونانى وحكومته وسياسته ، وهذه هى المرحلة التى لازمه فيها أفلاطون ، وعنها وعنه كتب بيقين ووضوح وايمان · فى هاته المرحلة اختلط سقراط بالشعب، وانتقد الحكومة حينا وانتصر لها حينا ، وخالفها حينا ، وتعرض لسخطها أخيرا ، ثم فى الحرب هو جندى من جنودها ، وهو فى السلم أول المدافعين عن قوانينها ، ولو كان فيها مايمسه هو بسوء ·

ولقد عاش سقراط فى عهد بركليز العظيم حين كانت أثينا ملتقى الثقافات ، وحين كانت ملتقى المعارك العلمية والفلسفية بين الشرق والغرب وحين كانت الحكومة ديمقراطية تمثل الشعب تمثيلا صادقا ، وحين دارت الأيام بعد موت بركليز ، وانتهى الصراع بين اسبارطة وأثينا بانهيار أثينا — ثم أخيرا شهد سقراط عودة الديمقراطية لتحاكمه وتحكم عليه بالموت ، فى كل عهد من هذه العهود كان لسقراط أثر ، ومما لا يقبل الجدل أنه كان وثيق الصلة بالدوائر المختلفة ، ومعروفا من جميع الطبقات ، ولا جدال أنه أصاب شهرة واسعة من سن مبكرة ، اذ ليس من المعقول أن يجعله مؤلف مشهور مثل أرستوفان محورا لمسرحية من مسرحياته اذا لم

يكن معروفا لأهل أثينا جميعا . ولقد دافع عن نفسه بأن ذكر أسماء شيوخ من شيوخ أثينا ـ عظماء وأثرياء ـ بينهم وبينه صلة وثيقة ومودة متينة منهم كريتياس عم أفلاطون ، وكريتو الثرى المشهور .

على أن أهم صلاته بالشباب ، التى أثرت فى محاكمته فيما بعد هى صلته التاريخية بالسبياديز . كان هذا الشاب من أجمل وأنبل وأشجع شباب اثينا . ولا شك أن قراء التاريخ يذكرون كيف اتهم السبياديز بالكفى والتندر بالديانة اليونانية ، وكيف قدم للمحاكمة فهرب الى اسبارطة وانضم الى جيوشها ، وكان السبب فى هزيمة أثينا ، ودارت الايام فرجع الى وطنه ، ولكن وطنه جازاه أقسى الجزاء ، فختم أيامه فى النفى والتشريد .

كانت الاشاعة التى تدور حول اسمى سقراط والسبياديز توحى بان العلاقة بينهما أكثر من علاقة أستاذ بتلميذ وأن ما بينهما تطور الى مسألة جنسية بحتة ، فاذا ما سمع بهذه الاشاعة أجاب ساخرا « حقيقة انى أستاذ فى فن الحب » ! ولكن الذين يعرفون استقامته الصارمة يدركون بعده التام عن الشهوات والصغائر .

ولد سقراط من عائلةطيبة ويستدلون على ذلك من أسم أمه وابيه فقد كانت للأسماء فى تلك العهود دلالة على المنبت والارومة ، ولم يكن سقراط فقيرا ولا صعلوكا ، ولكنه اختار لنفسه التقشف والحرمان لانه وجدهما سبيله الحقيقى الى الثراء النفسى ، وكان اسم سقراط مقيدا ضمن جنود الجيش ويجرى عليه كما للجنود دخل ثابت ، أما فى آخر أيامه فقد أدركه الفقر حقيقة ، ويظهر أن ذلك من الفقر العام الذى ضرب أطنابه فى أثينا . فى المرحلتين : مرحلة الشباب والكهولة وعلينا أن نتحدث عن :

١ ـ شكله وزيه ٢ ـ طباعه ٣ ـ مدرسته ٤ ـ ثقافات أثينا وموقفه منها ٥ ـ ديانته وديانة أثينا ٦ ـ المعجزات والعلامات الخفية التى نسبت اليه .

كان سقراط كبير الرأس كبير الانف تترجرج مقلتاه ترجرج الزئبق وكان فى مشيته مشية البطة .

أما عن طباعه ، فأول ما يذكر انه كان دائب السخرية ، لا من الناس فقط بل من نفسه ، اذ كان يؤمن بأنه جاهل كباقى الناس ، ولكن الفرق بينه وبينهم أنه يبحث عن الحقيقة ولكنهم لا يبحثون ، وكان دأبه أن يعلم الناس كيف يعامل الواحد منهم غيره وكيف يعيش فى الوسط الذى يحيا به ، ولم تكن له مدرسة خاصة ، فقد كان يسمى تلاميذه « الرفاق » ولا يتناول أجرا . وكان على زهده وتقشفه ، متين البناء قوى العضلات يجارى أصحابه أحيانا فى الشراب ، ولكن الخمر لم تكن لتؤثر فيه مطلقا . ويمكن أن نلخصه فى بضع كلمات : لقد كان طاغى العاطفة ، طاغى التفكير، متصوفا ساخرا .

أما عن التصوف ، فقد كانت تعتريه نوبات ذهول وغيبوبة ، وكانت

تظهر له علامات خفية نكاد نسميها هواتف ، وكانت لهذه العلامات صفات الانذار والتحذير • أما الغيبوبة فكانت تقصر أو تطول ، وقد استغرقت احدى نوباته أربعا وعشرين ساعة •

على أن هذه العلامات كانت تبدو له على غير انتظار فيقف مصغيا الى صوت بعيد ، وقد كان معتادا أن يطيع نواهي تلك الهواتف ، ولم يعصها الا مرة واحدة كانت السبب فى الكوارث التي مرت به فى أواخر أيامه فقد حذرته هاته المواقف الاندماج في السياسة ، والاشتراك فى أعمال الحكام فلم يصغ اليها ، وكانت العاقبة وبالا .

هل كانت لسقراط « ديانة » ؟ فمن الواضح أن عقلا كعقل سقراط لايمكن أن يستسلم لاية عقيدة ــ دينية أو غير دينية ــ بدون مناقشة فكان عليه أن يناقش كل شيء ، فلم تخل ديانة أثينا من نقاشه العنيف وقد كانت المعتقدات السائدة فى أيامه ثلاثة :

١ ــ الاورفية وهذه مبنية على الاعتقاد بأن النفس ألوهة منفية ومشتقة من ألوهة أكبر ، وأن هذه الروح أو الالوهة الصغرى منفية فى أجسادنا ، وعلينا أن نتعهدها بالتطهير والابتهال حتى تعود الى الاصل مطهرة صافية • ولكن كلمة « الروح » لم ترد على لسان الاورفيين وانما كان الاورفيون يسمونها psyche أو النفس ، ولم يكن لها صفة ، غير أنها الوهة مشتقة من ألوهة أعلى • وتتسم بالادراك والوعى بصفة عامة ادراكا واعيا مشتركا فى جميع الناس على السواء • على أن سقراط ــ على قبوله مبادىء هذه الديانة ــ لم يعتنقها كما هى ، وخاصة لأنه أبصرها تضمحل وتستحيل الى حلقات « ذكر » وابتهالات •

أما الديانة الثانية السائدة فى أثينا فقد كانت قائمة على الاساطير ، وأقوال الشعراء ، ويظهر أن سقراط أبدى رأيه علنا فى قيمة هذه الاساطير • ومن المهم أن نذكر أن من بين أسباب محاكمته « الكفر بهذه الديانة وبحثه عن أرباب جديدة » فلما ووجه بهذه التهمة لم يزد على أن يسأل بدوره « ومن أربابكم » ؟ فلم يردوا على سؤاله !

أما الديانة الثالثة فالديانة العلمية الفلسفية ، وليس خافيا أن أول من بحث فى طبيعة الكون ووجود الخالق وفى علاقة المخلوق بالكون وخالقه هم فلاسفة اليونان من قبل سقراط وقد انقسموا مدرستين شرقية على سواحل آسيا الصغرى ، وغربية فى جنوبى ايطاليا ، وقد كانت أثينا ميدان الصراع بينهما • قرر الفلاسفة مبدئيا وبلا جدال أن للكون خالقا ، فخرجت هذه النقطة من دائرة النقاش ، ولكن بقى أن يبحث الفلاسفة فى كنه هذا الخالق • ثم عن علاقة المخلوق به ، ثم عن علاقة الكون بالاثنين :

أما المدرسة الشرقية فكانت مدرسة موحدين ، غير أنهم قالوا ان النفس نفس أو هواء مشتق من هواء عام يعود بالموت الى أصله وزادوا على ذلك أن الكون اسطوانة مسطحة محمولة على الهواء •

وكان فى الغرب مدرستان : مدرسة فيثاغورث التى بنت بحثها على الرياضة وابتدعت أهمية الارقام ، واكتشفت كروية الارض ، وأنكرت أن

تطفو على هواء ، لأنها معلقة في الفضاء · وأما المدرسة الاخرى فمدرسة تقول : أن الخالق من نار وهواء وماء ، وهذه مدرسة امبودكليس ·

كل هذه المذاهب ، لم تقنـــع سقراط ، وان كانت قفزت بالعلم من الناحية الاسترولوجية الى النـــاحية البيولوجية ثم الى الناحية الرياضية غير أن اثنين فقط هما بارمينيدس وزينون هاجما هذه الترهات حول صفة الخالق ، ان هذا التقلب والتغير ليسا من صفات الخالق وأن الخالق يجب أن يكون « مفردا ثابتا مطلقا لا يتغير » ·

ساعة مع افلاطون

قبل أن نتحدث عن أفلاطون نود أن نعود بالقارىء مرة أخرى الى سقراط حتى يمكننا أن نلقى ضوءا جديدا على أفلاطون .

يمكننا أن نقسم حياة سقراط الى ثلاث مراحل كما تقدم :

المرحلة الاولى ـ من مولده حتى قامت الحرب بين أثينا واسبارطة وجند فيها سقراط .

والمرحلة الثانية ـ فترة الحرب التى انهكت أثينا وعصفت بقوتها وجرتها الى الاضمحلال .

ثم المرحلة الاخيرة ـ وهى مرحلة الرسالة ، أو المرحلة التى اشترك فيها اشتراكا فعليا فى أمور مواطنيه ، وهى ولاشك أهم هذه المراحل شأنا ...

المرحلة الاولى :

يهمنا فى هذه المرحلة أن نتكلم عن شكله وزيه ، طباعه ، وأخلاقه ، العلامات الخفية ، مدرسته ، ثقافات أثينا وموقفه منها ، ديانته وديانة أثينا .

أما شكله ، فقد كان ـ كما تقدم ـ كبير الراس ، كبير الانف ، تترجرج مقلتاه ترجرج الزئبق ، كما كان متين البناء ، قوى العضلات .

أما طباعه فى هذا العهد ، فتلخص فى أنه كان يشعر بجهل الناس ، وبما فى نفوسهم من نقص ، ولذلك كان دابه السخرية من جهلهم ، كما كان يسخر من نفسه ، ولم يكن فى هذا كاذبا ، بل كان يؤمن بأنه هوأيضا يبحث عن الحقيقة ، فهو اذن لايفضلهم فى شىء الا فى أنه يبحث وهم لايبحثون . وهذه تبين لنا أنه كان رجلا .

كان يعلم الناس كيف يعامل الفرد غيره ، وكيف يعيش فى الوسط الذى يحتويه . ولذلك نتساءل .. هل كانت له مدرسة ... ؟

لقد كانت له مدرسة من طراز خاص ، فقد كان يسمى تلاميذه رفاقا associates وكان لايتقاضى أجرا ، وفى هذا تميز عن السوفسطائيين .

ولقد اتهم فى محاكمته ـ كما تقدم ـ بأنه كان مفسدا للشباب ، ولكنه دافع عن نفسه بأنذكر شيوخا من شيوخ أثينا بين عظماء وأثرياء كانت بينه وبينهم صلة وثيقة ، على أن أهم صلاته بالشباب ، التى أثرت فى محاكمته وأدت الى الحكم عليه ، هى صلته بالسبيادس وكان من

اجمل شباب اثينا والمعهم واشجعهم ، وكانت الاشاعة التى تدور حول علافته بسقراط أكثر من أن تكون علاقة بين أستاذ وتلميذ ، بل تخطتها الى مسألة جنسية بحتة ، وكان سقراط اذا ماسئل عن ذلك أجاب ساخرا ، على طريقته ، اننى حقيقة استاذ فى فن الحب ... ولكن الذين عرفوا استقامته الصارمة كانوا يوقنون ببعده التام عن الشهوات والصغائر .

ويمكننا اذن أن نلخص شخصيته اذ ذاك ، بأنه كان رجلا طاغى العاطفة ، طاغى التفكير ، ساخرا ، متقشفا ، متصوفا ..

.. وماذا نعنى بالتصوف ...؟

نعنى بالتصوف ــ كما تقدم ــ انه كانت تعتريه نوبات ذهول وغيبوبة ، وكانت تظهر له علامات خفية نكاد نسميها « هواتف » ، ولم تكن هذه الهواتف ايجابية ولا موجهة لناحية ما ، وانما كانت علامات مانعة تنهاه عن المضى فى سبيل بدأ السير فيه ٠٠ أما الغيبوبة ، فكانت تقصر او تطول ، وقد استغرق فيها مرة أربعا وعشرين ساعة ، ولكن العلامات الخفية ، كانت تعرض له على غير انتظار ، فيقف ، كأنه يصغى أو يستمع الى صوت غامض ولكنه واضح له . وكان يلبى نواهيها .. والمرة الوحيدة التى خالف فيها أمرها حدثت فى أواخر أيامه ، فقد حذرته هذه المواقف الاندماج فى السياسة ، والاشتراك فى أعمال الحكام وكانت عاقبته وبالا كما سنرى ...

والكلام عن التصوف ، يدعونا الى أن نتكلم عن ديانته !!

من الواضح أن عقلا كبيرا مثل عقل سقراط لايمكن أن يستسلم لأية عقيدة ــ دينية أو غير دينية ــ بغير مناقشة . ولهذا فقد كان عليه بالطبع أن يناقش الديانات التى كانت شائعة فى اثينا فىذلك الوقتليتخير الاصلح منها .

ولقد كانت الديانات السائدة فى أثينا فى أيامه ثلاثا .. الديانة الاورفية ، والديانة العلمية الفلسفية ثم الديانة القائمة على الاساطير ، وهذه كانت أكثرها انتشارا . غير أنه يمكننا القول ، أن هذه الديانات بمذاهبها المختلفة لم تقنع سقراط فهجرها برما بها ، وشق طريقا جديدا هو « أن يعلم الناس كيف يمارسون حياتهم ، وكيف يعاملون غيرهم » ووجد أن هذه أفضل ديانة « مؤقتا » .

ويمكننا أن نقرر كذلك أن سقراط أول من اعتنق مبدأ « خلود الروح » ، وانه أول من ذكر كلمة الروح Soul ، وأنه أول من جعل لها معنى بأنها « الشىء الذى يحتوى صفاتنا الذهنية والخلقية ، ولذلك سميت فلسفته بحق « الفلسفة الاخلاقية » .

وقبل أن ننتقل الى المرحلتين الثانية والثالثة من حياته ، يجدر بنا أن نقول : ان وقت هذه المرحلة الاولى قد يتفق مع الوقت الذى حدثت فيه معجزة دلف قبل حرب البلوبونيز بين أثينا واسبارطة . فقد اجتمع أهل اليونان فى معبد دلف لتحية الارباب وسؤالهم عما يهمهم ،

والاستعانة بهم فى قضاء حوائجهم ... وأخـذت الكاهنات يجبن على هاته الاسئلة . وحدث أن وجه « سيروفون » سؤالا الى الاله « أبولو » عمن هو أحكم الحكماء ؟ فأجاب على لسان احدى الكاهنات «سقراط» .

أما سقراط ، فقد اعترته ازمة نفسية عنيفة اذ استغرب أمر هذه المعجزة ، ومضى يبحث عن دليل صدقها ، فأخذ يبحث عن الحكمة بين جميع الطبقات حتى تأكد لديه صدق هذا التكهن ...

ثم حدثت له ازمة أشد اذ أخذ يسأل نفسه أسئلة ليجيب عنها ..

ـ لماذا نطقت الكاهنة بهذا الحديث ؟

ـ عليه رسالة يجب أن يؤديها ...

ـ اى رسالة بالضبط ..؟

ـ أن يتعهد الانسان روحه ويسهر عليها وينظفها ..

اذن فهو مكلف برسالة ، فاندفع يؤديها بأمانة حتى وفاته .

والمرحلة الثانية : هى ـ كما سبق القول ـ المرحـلة التى قامت فيها الحرب بين أثينا واسبارطة . ولقد كان سقراط جنديا فى هـذه الحرب ، وتاريخه العسكرى رائع مشرف . ولما عاد اخـذ يسـأل كل شخص : ماحال الفلسفة فى اثينا ؟ وما حال شباب هذا البلد ؟

أما المرحلة الثالثة : فهى التى اشترك فيها اشتراكا فعليا فىأمور مواطنيه ، وهى المرحلة التى اخذ ينفذ فيها رسالته بقوة ، وقد كلفـه ذلك غاليا ، اذ أدى به الى المحاكمة فالموت . وكان ذا نفس ابية لم يطرق اى باب للخلاص مادام يتنافى مع مبادىء الرسالة التى يعتنقها ..

عندما هزمت الديمقراطية ، حكمت اثينا لجنة مكونة من ٣٠ رجلا كان من بينهم صديقه الحميم كريشياس . فاستبدت وطغت ، وأخذت تصادر الاموال وتخالف القوانين ، وتحاكم القواد . فثار سقراط على ذلك ، وأبى أن يشترك فى هذه الاعمال مع أنه كان عضوا فى اللجنة التى تولت محاكمة القواد ، وأبى كذلك أن يستمر فى أعمال المصادرة والقتل بغير جريرة مع تكليفه بذلك ، كل هـذا زيادة على انتقـاده علنا لهـذه التصرفات حتى زجره صديقه كريشياس وثار فى وجهه غاضبا .

ولقد كان انتقاده للديمقراطية ، أن هؤلاء فيهم الفضلاء ، وهؤلاء منهم السادة الكفاة ، ولكن مافائدة ذلك ان لم ينقل هؤلاء فضلهم وأهليتهم للشعب .. لقـد كان بركليز عظيما ، ولكن أين مشـار عظمته .. وكان اريستيد عادلا ، ولكن أين عدوى عدله ؟

كان يصيح بهذا النقد علنا ، فأحفظ قلوب الحكام عليه ، وطلبوا تقديمه للمحاكمة أربع سنوات ، أى بعدما عادت الديمقراطية وانتظمت دوائر المحاكمة من جديد .. وكان فى مقدوره أن يهرب ، وأن ينفي نفسه بنفسه ، ولكنه انتظر المحاكمة هادئا ، وكانت أسباب المحاكمة هى :

١ ــ افساد ديانة اليونانيين .
٢ ــ افساد أخلاق الشباب .
٣ ــ انه مسئول عن هرب «السبياديس» الى صفوف الاسبارطيين مما ادى الى هزيمة أثينا .

٤ ــ ان كل ماجاء فى مسرحية ارستوفان حقيقى وينطبق عليه . وانها لم تكن مجرد سخرية . ومعنى هذا أنه كان صاحب مدرسة يتقاضى منها اجرا وانه اخترع دينا جديدا مبنيا على الهواء والاشباح ghosts وعلى تقاليع أخرى منها أنه اخترع آلة يتماوج بها فكره خوفا من التصاقه بالارض .

لم يحاول سقراط فى دفاعه أن يبرىء نفسه وقد كان فى مقدوره أن يشيد بتاريخه العسكرى . ولكنه حاجهم فيما يتعلق بالدين ، وأحرجهم حتى لم يستطيعوا الكلام ، ثم اقنعهم بأنه ليست له مدرسة ولم يتناول أجرا ما ، وبعد ذلك أفاض فى وصف المعجزة وآثارها وانتهى الى شرح رسالته . وأخيرا قال : « ان الفلسفة بحث عن الحقيقة ، ولكن هذا البحث فى أثناء الحياة يرى من خلال ثقوب ، أما بعد الموت فهو يستكمل بلا ستار وحجاب ، وبعد ذلك أخذ يمتدح الموت كباب من أبواب الخلاص والمعرفة الحقيقية .

وكان المحكمون خمسمائة حكموا عليه بالاعدام بأغلبية قليلة .

ولدواع مقدسة ، تأجل التنفيذ شهرا . فأخذ يقضيه فى تعليم أصدقائه وتلاميذه حتى اليوم الاخير ، وحتى فى صباح ذلك اليوم ، اخذ يحدثهم عن عظمة الموت ، فلما حان ميعاد التنفيذ قدم له السجان الكأس وهو يبكى فقال للسجان : لماذا تبكى .. انك تأخذ جسدى فقط .

واخذ محبوه يبكون ، فزجرهم ، وتناول الكأس مسرورا راضيا . ثم وسد نفسه ، ومات بهدوء تام .

ان ساعة مع افلاطون العظيم ، اقل من ان تطلعنا على جزء من الف من تفكير ذلك الذهن الجبار ، والواقع انى لا أشبه فى هذا الزمن القصير أكثر من سائح أو دليل . انى أمام افلاطون ، أرانى قبل موسوعة فخمة . وعظمة هذه الموسوعة قائمة فى أنها أساس كل تفكير حديث ، فنحن نجد بها ما ننشده من الحديث عن الفن والأدب ، وما نتطلبه من البحث فى نظم الحكم ، وما نتخيله عن العالم الكامل ، وما نريد أن نعرفه من أصول علم النفس ، وما نود أن نلم به من مناهج التعليم .

وفى الحق أن الانسان يحار فى كنه ذلك الفكر الجبار الذى استوعب كل ذلك وفصله ذلك التفصيل الخارق المعجز . والمدهش انه لم يكتب بأسلوب فلسفى غامض أو قلق ، بل كتب بأسلوب شعرى واضح جميل . حتى ان الانسان ما يكاد يبدأ القراءة حتى يجد نفسه مسوقا الى النهاية على الرغم منه ، كأنه يقرأ رواية رائعة . ويكفى متعة أن نعود الى المحاورات من وقت لآخر ، وأن نخوض فى « الجمهورية »

كما نخوض عباب يم زاخر ، يكفي هذان على الأقل ولا نتحدث عن الباقي من مؤلفاته .

على أن الذي يريد ان يقرأ أفلاطون عليه أن يلم بعصره وأن يلم بحالة بلاده في ذلك العصر من حيث الحكم والاقتصاد والحرب والسياسة وعليه كذلك أن يلم بسيرته هو من حيث اقامته وظعنه ، ومن حيث ان بدأ تلميذا الى ان انتهى معلما وفيلسوفا تام النضج .

نبدأ الآن بوصف صغير لليونان ، في عهد أفلاطون ، فقد ولد أفلاطون في أثينا سنة ٤٢٧ ق.م. على رأى . واليونان في الخريطة تشبه يد هيكل عظمي ، تمتد في البحر الأبيض المتوسط وتشير الى كريت ، كأنما تشير الى المنبع الذي سرت منه الحضارة اليها والى غيرها. الى شرق اليونان نجد آسيا الصغرى ، وهي في تاريخنا الحاضر هادئة وادعة ، ولكنها في عصر أفلاطون كانت تموج بالفلسفة ، وتزخر بمختلف ضروب النشاط الفكري والتجاري ، والى الغرب نجد ايطاليا وصقلية وقد كانتا تابعتين لليونان وفيهما مدارس لامعة للفكر والثقافة والعلم. واذا اتجهنا الى الشمال فثم مقدونيا وتساليا وابيروس وقد كانت هذه الابواب التي دخل منها الهمج الذين عمروا اليونان ومن مزاجهم العنيف القوي ، انحدرت الى التاريخ عقول جبارة مثل هومير وبركليز وغيرهما .

كانت اليونان في عهد أفلاطون مكونة من مدن مستقلة تسمى الواحدة منها المدينة الدولة ، وساعد على استقلال كل منها ما يحيط بها من المرتفعات ويفصل بينها من الخلجان ويحيط بها من التضاريس. فمذ كانت المواصلات بين المدينة والأخرى من الصعوبة بمكان ، استقلت كل منها بنفسها . ومن أشهر هذه المدن اسبرطة ، التي كانت تنافس أثينا كما كانت ألمانيا تنافس انجلترا في العصر الحاضر . ولقد كانت اسبرطة قوية في البر كما كانت أثينا قوية في البحر فكانتا تتحدان ضد العدو المهاجم ، حتى اذا انصرف العدو ، عادتا للتنافس الحار . ولقد كشف برتراند رسل في كتابه عن الفلسفة الغربية سر المصدر الذي منه استقى أفلاطون معلوماته عن المجتمع والحكم ، فقد سرد برتراند رسل في كتابه المذكور تفاصيل النظم والقوانين في اسبارطة، فاذا هي هي تعاليم أفلاطون مع تغيير قليل . غير أن أهل اسبارطة كانوا يهدفون الى بناء أجسام قوية جميلة رشيقة ، حتى انه كان يتحتم على البطل اذا مات في الحرب أن يموت « برشاقة » أي يموت كما ينام، بلا أنين ولا دمامة ولا اضطراب ، أي يمهد قبره كما يمهد فراشه ! ولكن أفلاطون عاب على المربين أن ينصرفوا هذا الانصراف الكلي لتنشئة الأجسام ، وأشار بأن يتجهوا الى نواح أخرى سنفصلها فيما بعد .

على أنه في التنافس المذكور ، كانت أثينا هي الغانمة . فان ميناءها بيريه واسطولها الذي كان في الحرب محاربا وفي السلم تاجرا ، جلبا الى أثينا التجار من مختلف الملل والنحل . وكان جوب البحار سببا في أن يدرس اليونانيون الفلك . كما كانت المبادلات التجارية سببا في أن يدرسوا الأرقام الرياضية ، وكان الرخاء سببا في توفير الوقت الذي هو العنصر الأول في البحث والاختراع والتفكير الحر ، فأخذ الانسان يفكر في طرق طبيعية يفسر بها الحوادث الكونية وانصرف عن تفسيرها

بالخرافة والسحر . فمن ثم بدأت الفلسفة ، على أن الفلسفة بدأت طبيعيه ، اى بدأت تتفهم « طبيعة الاشياء » وقد انتهى ذلك العهد بالفيلسوف ديمقريطس الذى كان يعتقد ان الكون ذرات وفراغ ، وكان من مؤيديه ابيقور ، ثم لوكريتس فى قصيدته الخالدة .

غير ان مجيء السوفسطائيين بدل اتجاه ذلك التيار فان هؤلاء نقلوا التفكير من محيط الاشياء الى محيط الانسان . ومهما يوجه اليهم من النقد من حيث اعتمادهم على البيان المدوى واللفظ المزخرف المجلجل ، فقد ظهر من بينهم رجال ذوو عمق وفهم واصالة مثل بروتاجوراس وهيبياس . على ان السفسطائيين هم الذين ابتدعوا طريقة الحوار والجدل والتساؤل . وقد كانوا شجعانا ، يقفون مدافعين عن آرائهم مهما كان وراء هذا الدفاع من المسئولية والخطر . وكانت آراؤهم السياسيه تقسمهم الى فريقين : فمنهم من كان — مثل روسو فيما بعد — يدعو الى الرجوع الى الطبيعة على زعم أن الناس يتساوون دائما أمام الطبيعة ، والفريق الآخر — مثل نيتشه فيما بعد — يدعو الى القوة ويقول : ان القوانين انما أرادها الضعيف لتحد من مطامع القوى. مع أن القوة هى كل شيء .

فلما ظهر سقراط سار على طريقة السوفسطائيين ، غير أنه أول من دعا نفسه بالفيلسوف أى محب الحكمة ، بخلاف كلمة سوفسطائى التى معناها « غارق فى الحكمة » وكان يقول عن نفسه « انى على يقين من شيء واحد هو انى لا أعرف شيئا ... » ويشبهه فى العصر الحديث فيلسوف كبير — برنارد شو على الارجح — فى قوله : « فى الأربعين اكتشفت اكتشافا هاما : اكتشفت علمى بجهلى » .

ان سقراط كان يدعى الجهل عمدا لكى يصل الى الحقيقة ، وقد كان صارما عنيفا فى الوسيلة التى تصل به اليها ، يتضح ذلك من محاورات افلاطون ، فقد كان يعتصر محاوره فى الجدل اعتصارا حتى يجعله يثور ويجبن ، على أنه لا يلبث ان يهدأ حين يقوده سقراط بيده الى الطريق الذى يكشف له الحقيقة .

وقد كان سقراط كذلك عنيفا فى آرائه السياسية . فقد كان لا يؤمن بالديمقراطية . اذ كان يعتقد أن الذكاء هو الذى يجب أن يحكم وله رأى فى الديمقراطية عجيب هو أن الجماهير أبواق نحاسية تظل تدوى حتى يأتى من يسكتها بيده . ولا ندرى أكان سقراط يتكهن بما ستصنعه الديمقراطية به يوما من الايام ؟ هل كان يدرى أنه على يديها سيتناول كأس السم ذات يوم ؟

على أن ديمقراطية اثينا كانت تامة بقدر ما كانت شاذة خرقاء . فقد كان عدد سكان أثينا ٣٠٠٠٠٠ منهم ٢٠٠٠٠٠ من العبيد والباقى احرار يؤخذ صوتهم جميعا فيما يهم الدولة من الشئون .

على أن الديمقراطية أسلمت زمامها فيما بعد الى اوليجارشية — اى جماعة من الأثرياء — يحكمون اثينا . ولكن الحرب بين أثينا واسبارطة ادت الى نفى هؤلاء ، وعلى رأسهم كريتياس عم افلاطون ، ولكنهم صدر

عنهم عفو فما لبثوا ان عادوا من المنفى واعلنوا الثورة على الديمقراطية، غير انهم هزموا وقتل كريتياس وقبض على سقراط بتهمة أنه أفسد أخلاق الجيل ، ونشر الكفر والزندقة ، على حين أن السبب الحقيقى المستتر وراء كل هذا ، هو مبدؤه السياسى ، وتندره بالديمقراطية . وخلاصة كل ماسبق ، وأهميته من حيث موضوعنا أن كريتياس عم أفلاطون ، وسقراط أستاذه .

كان لقاء أفلاطون بسقراط شيئا هاما جدا فى حياته . فلقد ولد أفلاطون فى الثراء والمجد والنعمة والسعة . وكان رياضيا أوتى بسطة فى الجسم ووسامة فى الوجه . وحتى اسمه Plato معناه « عريض الالواح » ومن الواضح أنه ليس من السهل أن ينشأ الفلاسفة من هذا الوسط . ولكن التلميذ ما لبث أن تأثر بأستاذه حتى لقد قال : «أحمد الله على انى ولدت اغريقيا ، وولدت حرا غير عبد ورجلا لا امرأة وانى ولدت فى عصر سقراط » ..

كان أفلاطون فى الثامنة والعشرين حين مات استاذه . ولعل موت أستاذه بالسم ، بعد المحاكمة الشهيرة ملأه حقدا على الجماهير حتى أساء الظن بهم . وفكر فى طريقة جديدة لتهذيبهم واخذت الفكرة تتطور حتى صارت مشغلة حياته . ومما يذكر أن أفلاطون صنع ما يستطاع لكى ينقذ سقراط فلم يستطع وعرض نفسه للشبهات والتهم والأقاويل. فنصحه أصدقاؤه بالهرب، فأخذ يستعد للرحيل والتجوال ، فرحل الى مصر سنة ٣٩٩ قبل الميلاد ، ففوجىء بما رآه وشاهده بمصر مما لم يكن يتوقعه ، اذ قال له الكهنة المصريون : أن اليونان مدينة طفلة لا علاقة لها فى التقاليد والثقافة ، ولقد راعته مصر بسبقها فى العلم واتقان الزراعة وبقى هذا فى ذهنه حتى رسم صورة للمدينة الفاضلة ، ولقد رحل عن مصر كأنما صدم فى غروره ، فقصد صقلية فألفى هناك أتباع فيثاغورث الذين كأنما وجدوا أمامه ليتموا صورة المدينة الفاضلة فى ذهنه ، فقد ألفى نفرا من الحكماء الزاهدين الفلاسفة ، قد انقطعوا للتفكير والفلسفة والحكم .

ثم لبث اثنى عشر عاما بعد ذلك يضرب فى الآفاق من بلد الى بلد حتى لقد ذكر بعض المؤلفين أنه وصل الى حدود الهند . ثم عاد الى أثينا سنة ٣٨٧ ق٠م٠ وعمره اذ ذاك أربعون سنة ٠ وقد أنضجه السفر وهذبه التجوال وثقفه ، فاختلط عنده العلم بالفلسفة بالحكمة بالشعر فى امتزاج عجيب .

ولقد اتخذ لنفسه أسلوبا فى التعليم والكتابة امتزج فيه الجمال بالصدق ، والدقة بالبيان الناصع .

والواقع أن الصعوبة فى فهم أفلاطون ترجع أحيانا الى ذلك الأسلوب الشعرى الذى تتخلله السخرية أحيانا فان الانسان حينما يقرؤه يحار أيجد هو أم يمزح ! وأحيانا يجد الانسان نفسه سابحا فى جو غامض لذيذ يحمله على جناحين مسحورين يلهيانه عن التساؤل عن معنى كل ذلك..

والعجيب أن أفلاطون يجمع فى أسلوبه المتناقضات التى عابها على الآخرين فهو لا يحب الشعراء ، ومع ذلك له أسلوب الشاعر . وهو لا يحب الكهنة والوعاظ ومع ذلك فهو يعظ ، ويدعو الى الدين فى أكثر من موضع ، وينعى على السفسطائيين بيانهم وثرثرتهم وهو لم يخل من الثرثرة ، والاسترسال فى البيان المجلجل فى أكثر من موضع واحد .

على انه مهما يكن من ذلك فان « أفلاطون الفلسفة والفلسفة افلاطون » كما قال أمرسون .

هذه هى النواحى التى تتناولها فلسفته . ولن أتصدى لها بأكثر من المامة خاطفة ، فانى كما قلت سابقا ، لست فى هذا الخضم المتلاطم اكثر من سائح أو دليل .

١ ــ نظرية المثل .

٢ ــ النظرية الاخلاقية .

٣ ــ النظرية السيكلوجية .

٤ــ النظرية التربوية .

(١) نظرية المثل أو الصور (ormes) نظرية رائعة حقا ، فهى تبدأ من المنطق البسيط حتى تصل فى تطبيقها الى أكثر نواحى الحياة تعقيدا وغموضا . وقد بدأها أفلاطون بالتفكير فى طبيعة الاشياء العادية المألوفة. مائدة مثلا : المائدة شىء له صفات .. حجم صلابة لون ، فاذا تناولنا هذه الصفات وجدناها نسبية محضة ، اى انها ليست لها حقائق مطلقة، انها صفات تتوقف على العلاقة بينها وبين أشياء أخرى فالحجم مثلا يتوقف على المسافة التى بين الشىء والمشاهد له ، واللون يتوقف على الضوء المتساقط ولونه ، والصلابة تتوقف على قبضة الضارب وكنهه فالمائدة صلبة بالنسبة لليد البشرية ولكن ليست صلبة لمطرقة حديدية . على أن هذه الصفات لمادة ما . فاذا كانت هذه الصفات وهمية فلنجرب تجريد المادة من هذه الصفات . ماذا يبقى ؟ لا شىء . لانه لا يمكن تصور مادة بغير صفات . ولكن ما حكم علم الطبيعة الذى يقوم كله على « الأشياء » ؟ الواقع اننا فى هذا العلم كغيره انما نتناول نسبا وعلاقات ولكنا لا نعرف كنه الأشياء بالذات . فاذا كان الشىء مجهول الكنه ، والصفة وهمية ، أى أن الأبيض مثلا وهمى ، فلننظر فى صفة «البياض» لنرى هل هذه أيضا وهمية ؟ هذه الصفة مشتركة فى اللبن والقشدة وملاءة الفراش وليس اللبن هو ملاءة الفراش ، معنى ذلك أن هذه الصفة خارجة عن كنه الشىء بالذات فهل يمكن أن يكون البياض صفة ذهنية نصطنعها لأنفسنا ؟ أفلاطون يقول: أن هذا مستحيل ، والا فاذا فقد الانسان وعيه فقد البياض صفته ! واذا كانت المسألة صفة ذهنية ، يكون لكل ذهن بياضه الخاص وهذا مستحيل .

النتيجة ان البياض صفة يعرفها العقل حين يراها ، اى انهاصفة ازلية مشتركة اذا رآها العقل البشرى عرفها كأنما يتذكرها . أى أن

هناك « شكلا » أو مثلا أزليا أبيض هو الذى يعطى الاشياء صفة البياض اذا حل بها . اذن فلكل صفة ناقصة لدينا صفة كاملة هى صفتها الحقيقية التامة فاننا لا نتخيل شيئا ساخنا مثلا الا وجد ما هو أسخن منه . وحتى المثلث الذى نعرفه لا يكون الا صورة ناقصة لمثلث كامل . فان المثلث الذى نعرفه ليس مثلثا حقيقيا لأن خطوطه فى الواقع لها طول وعرض ، ثم ان هذه الخطوط ليست مستقيمة تماما . بناء على ذلك هذه الصور أو المثل باقية خالدة وليس لدينا نحن غير ظلال لعالم آخر : هو الباقى الدائم السرمدى الذى لا يمحى .

الآن هل يمكن تطبيق هذه النظرية على الفن ؟

ما هذا الذى يجعلنا نحب الشعر ونطرب للموسيقى ؟

لا شك أن الطرب والاعجاب أساسهما صورة أزلية مشتركة اسمها «الجمال» وهنا نقف لنتساءل : هل وظيفة هذه الصفة الثابتة المشتركة أن تخلع على نفسها الاشياء فحسب ؟ بل هناك وظيفة هى أن يعرف الناس أن العالم ظلال واشباح وأن هناك حقيقة أكبر كاملة وأن الناس يجب أن يؤمنوا بها ويتطلعوا اليها ويعملوا على الوصول اليها. نصل الى نقطة هامة فى طبيعة الفنان . فالفنان هو الذى يرى الجمال فى صورته الأزلية الحقيقية وعليه بعد ذلك أن يجلوه للناس أو بعبارة أخرى يجسم الصورة . فالجمال اذن غرض الفنان من حيث أنه موضع رؤيته ، وغرض العمل الفنى لانه يرمى الى تجسيد الجمال ، وغرض النظارة لانهم يتطلعون عن سبيله الى القيم العليا الخالدة . والفنان بالطبع يستعمل المادة الخام ليجسم بها الصورة اما من جهة التمثيل فان النظارة هم الأشباح والممثل هو الذى تتجلى الحقيقة الفنية على لسانه .

والآن هل يمكن تطبيق نظرية المثل على الأخلاق ؟ انافلاطون يقول ان الحقيقة التى لا نعثر عليها فى الاشياء ، نعثر عليها فى عالمين : عالم المنطق والرياضة ، ثم عالم الأخلاق ، ففى العالم الاول هناك حقائق ثابتة يمكن الاطمئنان اليها . فمثلا الكل أكبر من الجزء ، و أ ٢ ــ ب٢ = (أ+ب) (ا ــب) هذه حقائق ثابتة لا جدال فيها أما فى عالم الأخلاق ، فان هناك ايمانا لا يرقى اليه الشك فى جميع النفوس بلا استثناء ، ان الخير أحسن من الشر . وان العدل أحسن من الظلم . أن هذه المثل الانسانية انما هى ظلال لمثل عالية .

هذه المثل الثابتة ــ هذه النماذج ــ يتوسطها الخير كملك نورانى متوج .

وبناء على ذلك يكون الخير عند أفلاطون موضوعيا ، اى تابعا الخير خارجى . ولكن السؤال المحير هو هذا : كيف تقول أننا نعرف صورة الخير لانها أزلية فى نفوسنا ومع ذلك نقول ان الخير خارجى ؟ وبعبارة أخرى كيف تجثم الحقيقة الكبرى فى أعماقنا ثم تبدو فى ظلال ناقصة ؟ وكيف لا تؤدى الرحمة الثابتة المتأصلة فى نفوسنا الا الى عالم مشوه مضطرب حافل بالقسوة والشرور ؟

لم يجب أفلاطون عن هذا السؤال ولن يجيب احد .

ننتقل الآن الى سيكلوجية أفلاطون .

يقول أفلاطون : ان السلوك الانسانى ينبع من ثلاثة ينابيع : الرغبة العاطفة والمعرفة ، والرغبة والشهوة والدافع والغريزة شيء واحد . والعاطفة والطموح والشجاعة شيء واحد ، والمعرفة والفكر والذكاء والتعقل شيء واحد .

والرغبة مركزها بين الفخذين . وهى قدر يغلى من الطاقة البشرية . واكثرها جنسي . اما الانفعال فمركزه القلب . وأما المعرفة فمركزها الدماغ . وهذه الينابيع مشتركة فى الرجال جميعا ولكنها تختلف قوة . ولكى يتم اى عمل منظم يجب ان تتخذ المنابع الثلاثة بانسجام . وما يقال عن الاشخاص يقال عن الدول ، فالدولة الكاملة هى التى تتسق بها القوى الثلاث على شرط أن يكون العقل قائدها .

وان الاختلال يحدث حين تختلط الأمور ويوضع الشيء فى غير مكانه ، فيحل الاقتصادى مكان الجندى والجندي محل الفيلسوف .. والانسان يتسم بالعدل حين تنسجم فى نفسه القوى الثلاث على أن تخضع للعقل والعدل الفردى هو ذلك الانسجام الناشيء من جمال الروح ، والعدل الاجتماعى هو الأثر الظاهر من انسجام قوى الدولة وحلول كل قوة مكانها الطبيعى .

وهنا نعجب لأن أفلاطون تكلم عن « غول الشهوة » الذى تكلم عنه فرويد غير أنه يضيف أن هذا الغول يطغى بالافراط فى المأكل والمشرب والملاذ وقد يؤدى ذلك الى جريمة جنسية كعشق الوالدين مثلا (مركب أوديب !) ويقول أفلاطون : ان هذا الغول فينا جميعا غير أن بعضنا يعطيه القيادة وبعضنا يحول قوته الطاغية الى قوة منظمة خيرة، ويعتقد أفلاطون أن الموسيقى تنيم هذا الطاغية . وقد ضرب مثلا بقسيس كان يعالج المصابات بالهستريا بالموسيقى .

ثم ينقلنا نقلة غريبة حين يطبق هذه الآراء على التعليم فيقول : انه يجب على الجميع أن يتعلموا بلا استثناء . ويكون تعليمهم رياضيا لتكوين أجسامهم . ومصحوبا بالموسيقى ويشترط الا يكرهوا على العلم اكراها ، بل يجب أن يتناولوه مخففا بالموسيقى . وهو يعتقد جازما أن هذا المزيج من الرياضة والحرية فى الشباب يؤدى الى الوقاية من الامراض فى المستقبل ويغنى عن الطب والأطباء .

ثم يشير الى أهمية الدين فى التعليم قائلا : انه عند سن العشرين يقترح « فرزا » عاما بحيث يوجه كل لما يصلح له . وقد يعترض المعترضون ويثورون ، فاذا آمنوا عن طريق التدين ان هذه ارادة الله وانه هكذا شاء أن يوزع المواهب ، رضوا بقسمتهم ، ومضوا ، كل فى سبيله ، ليعمل لمصلحة امته فى الطريق الذى رسم له .

هذه ساعة مع أفلاطون ، وأعتقد انى ظلمته وظلمت فلسفته لأنى لم أقل شيئا يوضح فلسفته كما يجب أن يكون .

رسالة الحضارة

قبل ان نتحدث عن رسالة الحضارة يحسن ان نعين معنى الحضارة . ثم نتحدث عن نشوئها ثم عن الحضارات التى التمعت فى التاريخ ثم انطفأت ، عن أسباب انهيار تلك الحضارات وأخيرا مميزات الحضارة الحالية وعن التصدع الذى فى بنائها ، وأخيرا هل هناك أمل فى رأب ذلك الصدع ؟

أما عن معنى الحضارة فمن الطريف انه جرى حوار بين الفيلسوف الكبير جود وابنته المثقفة عن معنى الحضارة ، وهذا الحوار يجوز أن يجرى بين اثنين من المثقفين ، ويجوز ان يحدث هذا من الابهام فى معنى الحضارة لأى مثقف كما حدث لابنة الفيلسوف . ولذلك سأوجز هذا الحوار اللطيف قبل أن استرسل فى البحث .

أنا — اريد أن أعرف الحضارة ، فما التعريف الذى لديك ؟

ابنتى — اظن ان الحضارة هى الملابس الجميلة وركوب السيارات والحوانيت القريبة نبتاع منها ما نشاء .

أنا — نعم ، ولكنك تعلمين أن الأطفال يلبسون الملابس الجميلة ، وان خادمتنا تركب السيارات العامة وتبتاع الاشياء من الحوانيت فهل تريدين أن تقولى ان الأطفال متحضرون وان خادمتنا متحضرة ؟

ابنتى — لا لست اظنهم كذلك . وانما هناك أسباب اخرى تجعلهم متحضرين اذا شاءوا كالآلات والقطر الحديدية والاذاعة والمسرة والسينما .

أنا — لا أوافق على هذا فان كلمة المتحضر فى معناها ما يشرف فهل فى الذى ذكرت شىء مشرف ، اذكرى لى مثلا لانسان متحضر يشرفك ويشرف الدنيا ذكره .

ابنتى — بتهوفن ، شكسبير ، رافاييل .

أنا — هذا بديع . كدنا نصل . تعنين ان الأشياء الجميلة كالموسيقى والشعر والتصوير من مميزات الحضارة ؟

ابنتى — نعم كل شىء جميل من مميزات الحضارة .

أنا — الحلوى — القصور الجميلة — الأشياء الجميلة التى نحصل عليها بالمال والجاه والسلطان .

ابنتى — كلا . . كلا . .

انا ــ تعنين ان هذا اللون من الجمال ، شيء مادي يشتهي فينال فيمل ؟ وتنشدين جمالا لا تسأمه النفس ولا يتغير معناه على الزمن .

ابنتي ــ نعم هذا ما اعني . وأريد ان اذكر شيئا آخر له صلة بالحضارة ، الآلات . وان لم يكن لها اي جمال .

انا ــ الآلات نفسها لا تهم ، وانما الاختراع بالذات هو الذي يهم ــ معنى الاختراع ــ جمال الفكر الانساني وعظمته ، روعة ذلك الشيء الذي يجيء بالجديد المخالف .

ابنتي ــ ولم كان التفكير الجديد دالا على الحضارة ؟

انا ــ التفكير الجديد معناه التفكير الحر .

ابنتي ــ وماذا يمنع الناس من التفكير الحر ؟

انا ــ الا يكون الانسان آمنا على نفسه لان مخالفة العرف معناها التعرض للعقاب . فالتفكير الحر معناه وجود الامن . ومعناه كذلك الوقت الكافي للابتكار والتجديد . ومعناهما معا أن الانسان لم يعد عبدا للرزق ، اى ان الرزق لم يعد همه الاول وشغله الشاغل ، فلدى الانسان وقت يقضيه فى غير التفكير فى الطعام والكساء . اى ان الأمن والفراغ من مميزات الحضارة ، لأنهما يعينان على التفكير الحر الجديد . وكل شيء يوفر للناس هذا الضرب من التفكير يساعد على قيام الحضارة .

من هنا صلة الآلة بالحضارة لانها توفر للناس الوقت فينصرفون للتفكير .

وكذلك طاعة القانون تضمن وجود الامن ومن ثم تضمن أن يكون الناس أخيارا ولو مكرهين . وبذلك يصيرون اجتماعيين وتتحسن الصلات بينهم .

هذه هى أعمدة الحضارة صنع الأشياء الجميلة . وهذا هو الفن ، والتفكير الحر الخالق ، أي العلم والفلسفة ، وطاعة القوانين وهذا ما يسمى العدالة السياسية والاقتصادية . وأخيرا وجود الامن والفراغ وحسن الصلات الاجتماعية .

هـذا هو الحوار الممتع الذى جرى بين جود وابنته وهو مقدمة بليغة للمناقشة فى موضوع الحضارة ..

يبدو من هـذا جليا أن من ذكرهم التاريخ فى كتبه وأفرد لهم الفصول الطوال ، كالاسكندر الاكبر وهانيبال ونابليون هم الذين يجب أن نخرجهم من كتاب الحضارة . لانهم هم الذين أخروا العالم ومشوا به القهقرى . على حين نجد أن هناك قلة من البشر ، نشئوا أفذاذا وعاشوا أفذاذا ، هم الذين اقاموا بناء الحضارة على أكتافهم ، فلو انى خيرت فى كتابة التاريخ من جديد لمررت بهؤلاء الغزاة مرا . وملأت كتابى بالحديث عن كونفوشيوس ومحمد وعيسى وسقراط وأفلاطون وبيكون وكوبرنيكوس وجاليليو ووات ونيوتن ، أولئك الذين بنوا الحضارة على

دعامتين الاولى الخير وحسن الجوار وطيب الصلات والأخرى تحـرير الفكر وكسر الأغلال التى تكبل التفكير ..

أعنى تحرير النفس من عبودية الانانية وتحرير الفكر من عبودية الجمود .

أين مكاننا اليوم من هذا ؟ اننا كأفراد صرنا نطيع القانون ، ونحترم الجوار ، ونقدم على قليل من المساعدة للغير . ولكننا كأمم لا نزال ندين بشريعة الحرب ونخضع لقوانين القوة ونتربص للجار ونقيم الحـواجز وندبر الخطط اى أن عقل الفرد أخذ يتحرر ببطء ولكن عقول الساسة لا تزال تتخبط فى ظلمات البدائية الأولى .

على أننـا اذا فرضـنا أن تاريخ الكائنـات ١٠٠ عام ، فان تاريخ الانسان شهر والانسان المتحضر سبع ساعات أى اننا لا نزال فى حواشى الفجر !

لقد ذكرت دعامات الحضارة وقلت انها « الجمال فى صور فنية » وانها الامن والفراغ والعـدالة الاجتماعية (سياسية واقتصـادية) ، والصلات الاجتماعية القائمة على الخير والايثار .

غير أن هذا كله يمكن أن يوجز فى عمودين : صلات الخير ، وصلات الفكر المتحرر .

الأول اقامه المصلحون الدينيون والفلاسفة والآخر أقامه العلماء .

والواقع أنه ليس بين هـذين الفريقين من حدود فان الفلاسـفة فكروا تفكيرا نظريا حرا ، والعلماء فكروا تفكيرا عمليا حرا .

الاولون وسعوا نطاق النفس ، فاطلعوا الناس على ما كان خافيا من مواطن الجمال ، ومن ثم نشأت الفنون ، أما العلماء فطبقوا العـلم عمليا ، متحررين من القيود معرضين انفسـهم لكل أنواع الاضـطهاد والسجن والتشريد ، ولكنهم فلحوا فى خلق العصر الصناعى ــ أى العصر الآلى ــ فبلغنا ما قد بلغناه اليوم ووفر لنـا من الوقت ما به نعلم من جديد ونبتكر من جديد .

ولنعد لحظة أخرى الى التعاليم الدينية ، فهى من بدئها لختامها ، كانت تدعو للمبادىء نفسها ، كانت تدعو الناس لترك الاثرة والتمسـك بالايثار . كانت تدعوهم للعمل على ما هو أوسع من محيط النفس وأعلى من مستويات رغباتها ، ولكن نسيان النفس ، فى سبيل غرض أسـمى من النفس ــ الطريق للحضارة والسعادة ــ هو الشىء المستحيل الذى لم تستطعه الانسانية فى محاولاتها المتعددة .

هذا النسيان ، أو بالاصح هذا التخلى بعد الاخفاق فى محاولات عدة هو السبب الاول فى خوفنا على الحضارة ، فان المـادة وجدها لن تدعم بناءها .

ان «جود» يسمى حضارة المادة ، حضارة الحلوى ، وهو تعريف

قيم . ويعنى بذلك ان حضارة المادة حضارة ترف قائمة على ما هو مستساغ كالحلوى ولكنه مأكول زائل كالظل الجميل . ومن الواجب أن نذكر أن المصريين هم الذين أقاموا الحضارة على دعامتين : الفن والحكومة الصالحة ، ولا شك أن الذين أقاموا تلك التماثيل الجميلة الرائعة كانت نفوسهم جميلة جمال تلك التماثيل مشرقة اشراق تلك الفنون ، وقد يكون ذلك ناشئا من انهم بدءوا عهدا جديدا فى التاريخ ، عهدا توافر لهم فيه رغد العيش والامن معا فانتجوا ما أنتجوا ، وابدعوا ما أبدعوا ، ولا شك أن هذا الابداع ، مقرون باختراع الكتابة ، فمما هو معروف أن المصريين هم الذين اخترعوا الكتابة ، ولما كانت الحضارة لا تتم الا بالانتقال من ممدن لمتمدين ، أى من قلة الى كثرة فان انتقال الآثار الذهنية عن هذا الطريق ـ طريق الكتابة ـ كان السبب فى قيام الحضارة أولا ، واستمرارها أخيرا .

ولابد أن نذكر هنا فضل العقل اليونانى على الحضارة ، فانه هو الذى حارب الخرافة ، وتحلل من قيود الماضى ، والقى نظرة شاملة على الانسان والوجود ، وبحث فى كيفية الخلق وطبيعة الخالق ، ثم حقق فى ماهية الروح .

والعقل اليونانى أول من أثار الحوار ، واستعمل الجدل ، وأول من نقل الفلسفة من بروجها العاجية الى الطرق والاسواق والاماكن العامة .

ثم انالعقل اليونانى أول منناقش أنظمة الحكم المتعددة ، واستقر على أن الديمقراطية أحسنها مهما يكن بها من عيوب .

لماذا انهارت هاتان الحضارتان ؟

ليست هناك حضارة تستطيع البقاء اذا احتفظت بالحضارة بين ربوعها هى فقط ، كيف تعتصمالواحة ؟ وأين تختبىء من رمال الصحراء حولها اذا ثارت عاصفة ؟

هذا بالضبط ما حدث للحضارات القديمة التى طمست ، فان الهمج اغاروا على اليونان ، والهكسوس اغاروا على مصر ، بمعنى ذلكأن الذين يتمتعون بنعمة الحضارة يجب ألا تحبسهم أنانيتهم ضمن جدران ضيقة ، بل عليهم أن يكونوا بدورهم ممدنين للعالم .

والآن لماذا يساورنا الخوف على حضارتنا الحالية ؟

ان حضارتنا الحالية يجب أن تستند دعائمها المتنوعة على العدالة الاجتماعية . وهى نوعان : عدالة سياسية يضمنها القانون ، وعدالة اقتصادية معناها حسن توزيع الأقوات .

لقد أصبح الناس اليوم متساوين أمامالقانون ، وصار لهم فىكثير من البلاد صوت مسموع فى نظام الحكم الذى يخضعون له وفى اختيار حكامهم . ولكن توزيع الأقوات لا يزال ينطوى على كثير من الظلم . فالجزء الاكبر من الثروة التى تحصل عليها الأمة فى كل عام يذهب الى

جيوب اقلية ضئيلة من الافراد ، في حين أن الكثرة الغالبة لا تحصل الا على القليل الذى لا يغنى . فهؤلاء يكدحون ليل نهار ، فى سبيل الرزق ، حتى أن هذا الكدح لا يدع لهم وقتا للتعلم ولا يدع لهم مجالا للمحافظة على صحتهم . ولا يتيح لهم فرصة للانتاج الفنى . فاذا انصرف البائسون منهم الى انتاج فنى فهو انتاج مبتور ناقص ، حادث تحت الحاح الحاجة وضرورات الفقر ، ومؤثرات الخوف والفزع ، ولاشك ان الحضارة منهارة طالما فيها تلك الصدوع الظاهرة فى أعمدتها

والغالب ان الضيق الداخلى الحادث فى أمة من الأمم من سوء التوزيع الاقتصادى يؤدى الى التنفيس الخارجي بالحرب . ويزيد هذا الميل خطورة أن العالم لم يعد وحدة متماسكة فان الحواجز خفية وظاهرة قائمة قياما حقيقيا بين الامم .

أما عن عقلية الحرب فمن الطرائف أن الملك أمان الله خان عندما زار انجلترا أطلعوه على جميع الاستعدادات الحربية ولم يزر متحفا واحداً ، ولا استمع لشاعر واحد .

هذا الجيل جيل حرب واستعداد للحرب ولم تغير الكوارث المتوالية عقول الساسة . لان من وراء عقولهم آلات التدمير ، تلك الآلات التى اخترعها الانسان ليصير بها سيد الطبيعة فصارت هى سيدته ، فنحن نقضى العمر فى السهر عليها وتنميتها وتحسينها وتنميقها وتنظيفها وجعلها مستعدة اى اننا نصرف عمرنا فى استرضائها وفى صنع آلات جديدة .

وللأسف ان ما توفره لنا الآلات لا يزيل البؤس والضنك ، لان توزيع الخيرات التى تنتجها توزيع غير عادل ، فيكثر عدد المتعطلين والفقراء .

رسالة علم النفس

أو الشخصية وتكوينها

لو سألت أكثر الناس ، وخاصة المثقفين منهم عن « الشخصية » لتضاربت الآراء تضاربا كبيرا ، ومع ذلك ما أكثر ما نسمع « فلان له شخصية » ونسمع كذلك أن الاسد « له شخصية مهيبة » ونسمع كذلك « على الانسان أن يعمل على تقوية شخصيته » ونسمع كذلك من علماء التربية المحدثين ان الفرض من التربية الحديثة « خلق الشخصية » ، فاذا استمعت الى هذا ثم أخذت تفكر فيه تبين لك أن الشخصية أحيانا نوع من القوة والخيلاء ، وأحيانا نوع من الخلق ، وأحيانا نوع من الارادة الضاربة ، وأحيانا شيء غير مفهوم يوحي بالمهابة والخضوع والاحترام .

والشخصية في الواقع ليست هذا ولا ذاك ونحن نتحدث عنها حديثا سهلا لينا كما نتحدث عن العبقرية ، بدون أن نعرف ما هي فليس للاسد شخصية ، وليس للرجل العبوس شخصية فقد كانت زوجة بسمارك تقول : انه رجل حديدى خارج بيته وهو في داخل البيت هرة ضعيفة عجفاء .

اذن ما هي ؟ اذا اتبعنا الطريقة العلمية فأصوب الطرق أن نصعد درج المخلوقات من البسيط للمعقد حتى نستطيع أن نعرف أن الخلية المفردة البسيطة لها من البساطة ما ينفى عنها صفة الشخصية على أية صورة فهمناها ، وكذلك في الحشرة البسيطة مهما حبتها الطبيعة من الجمال والالوان ، فلا بد اذن عند صعود درج التطور من مرحلة نقف عندها قائلين « هنا شيء جديد » .

إن الحياة من أولها الى آخرها نداء واستجابة أو بعبارة أخرى دوافع حيوية والرد عليها : وهذه الدوافع الحيوية في الخلية البسيطة هي عناصر الحياة من غذاء واستنشاق وتناسل فاذا جاعت الخلية بحثت عن الغذاء واذا نضجت أخذت تتناسل .

فاذا تعقدت الحياة تعقدت دوافعها ، معنى ذلك أن هذه العناصر البسيطة لم تعد تكفى البقاء فان الحياة أصبحت ميدانا للكفاح ، فلا بد من أسلحة أخرى تعين على الصراع ، لتضمن بقاء الفرد والنوع معا .

هذه الاسلحة هي الغرائز ، والفكرة العامة عن الغريزة مهمة ، فهى في عرف الكتاب تعنى الفطرة أحيانا ، والعاطفة أحيانا .

ولكن التعريف الحقيقي هو انها دافع حيوى وجد عندما تعقدت طرق الحياة وتنوعت وسائل البقاء ويمكن تعريفها اذن بأنها « عادة اجتماعية » اى عادة يعتادها المخلوق ليكافح فى سبيل البقاء ، وهى فى الواقع نوع من الطاقة تستنفد فى سبيل حفظ الفرد والنوع ، وقد فصل منها علماء النفس ما يقرب من العشرين ، فأدى ذلك الى خلط كبير . فقد مزج اكثرهم بين الفريزة والأثر الذى يسبقها أو يدعواليها، والنتيجة التى تنتهى اليها ، فالخوف ليسغريزة ، والحب ليس غريزة، فالخوف انفعال يؤدى الى الهرب الذى هو غريزة كالاعجاب وطلب الجنس الآخر الخ ..

يتضح من ذلك ان الفريزة دافع حيوى محض ليس فيه خير ولا شر وهى فى أبسط مظاهرها نداء واستجابة ، ويمكن أن نسمى هذا كما يسميه علماء الفيسيولوجيا « منعكسا Reflex » ، واهميته فى علم النفس ان مدرسة « السلوكيين Behaviourists » تعد السلوك الانسانى افعالا منعكسة مشروطة Conditioned

معنى ذلك أن السلوك يستثار اذا وجد ما أعتاد أستثارته . فان الغذاء ، اذا اقترن برنة جرس فان اللعاب يسيل ايذانا بميعاد الطعام فاذا رن الجرس بدون وجود الغذاء فان اللعاب يسيل على كل حال . وهؤلاء السلوكيون يقولون : ان الحيوان المعقد الجوانب ما هو الا منعكسات معقدة الجوانب ، على أننا لا نستطيع أن نوافقهم على هذا فان المنعكسات فى الحيوان آلية محضة ولا يمكن أن تكون المنعكسات البشرية من هذا الطراز ، فيجيبون أن الاختلاف انما وجد لان الدروبتشعبت والمسالك التوت ولأنه صارت هناك موانع تقف فىسبيل الآلية المحضة .

ولكننا نجيب اننا اذا صعدنا الدرج نحو الانسان نجد ان هذه الموانع التى تشيرون اليها انسانية اجتماعية ، اى أن المنعكس لم يعد بعد آليا فقد صار شيئا عاقلا ، وزيادة على ذلك فقد صار شيئا مبنيا على «الشعور» ، اى على احساسنا بوجود آخرين غيرنا لهم ما لنا من حقوق وواجبات .

وزيادة فى الشرح أقول : ان الحيوان حين يجوع يفترس وحين تلوح له الأنثى يقتل خصمه فى سبيل الحصول عليها ، أما نحن الذين نرتدى ثياب الآدمية فنحن نتمهل قبل أن نختطف اللقمة من فم غيرنا ونحن نستحى ان ننظر الى زوجة الجار كأنها مجرد هدف للتناسل مهما بلغت قوة الجمال عندها ، وقوة العاطفة عندنا .

على اننا لا شك نرتد الى الحيوانية فى أحوال خاصة كالحرب والفضب فنفترس غيرنا فى سبيل اللقمة ، وندوس حقوق الجار ، ونصنع ما لا يحصى مما لا يليق .

وعلى كل حال ، ما الذى حدث فى سلم التطور حتى صارالمنعكس الآلى منعكسا عاقلا مدركا ؟

ان الانسان لم يعد انسانا الا حين اخذ يعرف أن هناك « علاقة » بينه وبين غيره ، وبينه وبين المجتمع على العموم .

هذه « العلاقة » العاقلة الشاعرة المحسة المدركة هى فجر الشخصية .

فلا يمكن أن نتكلم عن « شخصية » انسان لايعاشر الناس .

ولا يمكن أن نتكلم عن شخصية انسان يتفاعل بخاصية متغيرة من مجموع خصائصه .

فالانسان ذو الشخصية (*) اذن هو آدمى علاقته بالبشر ثابتة من حيث أنها تفاعل ثابت ، أو غالب فى أكثر الاحوال ..

ولقد انكر علماء النفس عن شخص أن يقال انه مرح وطيب بل يقال مرح طيب . يفهم من ذلك ان الخصائص التى تكون الشخصية هى وحدة متماسكة كالسبيكة..

ومن جهة أخرى نجد السبيكة فى طرف ، والوسط فى الطرف الاخر فايهما أهم فى تكوين الشخصية ؟ فلننظر فى محتويات الطرف الاول . السبيكة الانسانية : هذه السبيكة مكونة من عقل وعاطفة وخصائص موروثة وامزجة ، ولقد عرفنا من أمر هذه السبيكة الكثير ولكنه بقى الكثير أيضا . وهذا المحصول الكثير هو ما انحدر الينا من أسلافنا وما لا نملك من أمره خيارا ، أى أننا لا حكم لنا عليه ، فهل تستطيع باخرةنصف بحارتها ظاهرون معروفون والنصف الآخراشباح، ان تخوض فى عباب الحياة سالمة ؟ وبعبارة أخرى هل يستطيع النصف المعلوم التماسك القوة أن يقود السفينة بصرف النظر عن الاشباح الاخرى التى تعمل عملها فى الظلام ؟

لقد انصرف العلماء فريقين هما :

فريق يقول بأن الوسط هو كل شيء ، وفريق آخر يقول : اننا نستطيع بالنصف المعلوم اذا سهرنا على تكوينه وتنميته وتوحيد أهدافه أن نتغلب حتى على الوسط ، وفريق ــ كالاستاذ برج يقول : ان شعورنا « بهذه الاشباح والمحتملات والخصائص الوراثية » هو الذى يجب أن يجعلنا نشعر بالنقص فنبغى الكمال . ومن ثم كان تعريفه للشخصية « انها ذلك التعامل بين الوسط وبين امكانيات وراثية « Hereditary Orientalists » يعنى بذلك أننا لا نرث شيئا محدودا، وانما نرث اتجاها وامكانا واحتمالا .

فمن أجل تكوين الشخصية يكون من الأسلم أن نفترض وجود هذا الضعف قائما ، على شرط الا نعده مهانة ، بل حافزا ، ولا نحسبه قيدا ، بل دافعا للثورة على القيد .

(*) من هذا يتضح أن الشخصية-صفة انسانية محضة ويمكن تعريفها اذن بأنها « الأثر الناشيء من تفاعل الخصائص الآدمية مع الوسط »

قد نكون مغالين اذا افترضنا هذه المجهولات والامكانيات كاساس لبناء الشخصية ، وقد يسألنا عالم من علماء النفس : وأين اثر البنية ؟ وأين اثر الغرائز ؟ وأين اثر الغدد ؟ وأين اثر الهرمونات ؟ وأين اثر العقل بخصائصه الثلاث (الاطلاعية والتأثرية والتنفيذية) ؟ وأين اثر العقل بقسميه الواعي والباطن ؟ فأجيب : وماذا نملك نحن من تكوين البيئة ؟ وماذا نعلم نحن من أمر الغدد والهرمونات الا القليل ؟ وماذا نعلم نحن عن حقيقة العقل ؟

أليست هذه كلها امكانيات ومحتملات ومجهولات ؟ ان الذى نستطيع أن نؤكده هو أن للجسم الصحيح القوى أثرا فى بناءالشخصية، ولكن حتى هذا التأكيد معرض للنقد ، فكم من أجسام هزيلة يكمن خلفها شخصيات فذة جبارة ! والذى نستطيع أن نؤكده عن الغرائز أننا نستطيع كبحها أو تحويلها ولا نستطيع تغييرها ولا خنقها . والذى نستطيع أن نقوم به نحو خصائص العقل هو أن نجيد استعمالها .

فالأسلم اذن أن نفرض أننا بين طرفين هما احتمالات ووسط :

أما الاحتمالات فهى اتجاهات علينا تحديدها وتوحيدها وتبين معالمها .

وأما الوسط فما يستطيع أكثر من أن يلون طبائعنا ويكسونا ثيابه ويسبغ علينا ظلاله ...

ولقد يكون من المفيد حقا ان نعترف بالنقص لنسير فى طريق الكمال ، لقد يكون من المفيد حقا أن نعترف أننا نستطيع أن نجعل من اللاشىء شيئا ومن المجهول معلوما ، ومن الاشباح أجسادا ، ومن الأسس المتناثرة بناء واضح المعالم. ولقد يكون من المفيد حقا أن نعترف أن الصراع مكتوب علينا ونحن أجنة • فحتى أعضاؤنا الداخلية الكبرى تتقاتل فى سبيل الاحتفاظ بأمكنتها والطفل معرض للزجر والنهى فى كل آونة ، واننا لو أصغينا الى أية نفس بشرية حتى أكثرها هدوءا لأصغينا الى صوت مدو ، ولكن الفرق بين الشخصية واللاشخصية أن الصراع الداخلى فى الاولى يؤدى الى نتيجة موحدة كمجاديف المركب سواء بسواء قد تختلف اتجاها .. ولكنها تتحد اتجاها ، وفى الحالة الاخرى تتصارع أجزاء النفس معا صراعا يؤدى الى تبعثر الأهداف وفشل المساعى .

ان هذا الصراع موجه وجهتين ، داخل النفس وخارجها ، فعلينا مواجهة النفس ، ثم مواجهة الحياة ، ان الذى لا يواجه نفسه يغشها أو يدللها او يهرب منها فاذا استطعنا أن نواجه أنفسنا بصراحة قررنا قبولها بعيوبها ونقائصها • كما يرث الانسان قطعة أرض ملتوية الدروب ، كلها أخاديد ومرتفعات ومنخفضات ، فعليه وعلى المهندس معا أن يبنيا فوقها منزلا بطريقة تحجب هذه العيوب وتخلق من القبيح جمالا ، ولا نشك أن قبول النفس يمحو الشعور بالنقص ، وليس الشعور بالنقص عيبا بل العيب تغطيته بطرق غير لائقة ، أو النظر اليه بجزع سرعان ما ينقلب حقدا

على العالم ، أو التفنن في مداراته بطرق تكشفه وتجمله سخرية • ويمكن لكل انسان أن يخلق من نقصه شيئا نافعا . فالفضولي يستطيع أن يكون مخبرا ماهرا ، ومحب العزلة يستطيع أن يكون عالما أو شاعرا أو فيلسوفا وهكذا ••

وقبول النفس كذلك يضمن انصرافنا عن ادمان النظر فيها وفي عيوبها ، انه من المؤلم حقا أن يدور الانسان في غرفة ممتلئة بالمرايا ، وأن يدور بها كل يوم ، ان هذه المرايا لو تحولت الى نوافذ ، لوجدت النفس آفاقا جديدة وظلالا جديدة ، وهذه الآفاق والظلال هي العثور على العمل والصديق ، فهذان يصرفان النفس عن التفكير في همومها ، ويجعلانها تعتقد أن هذه الهموم أشياء طبيعية عارضة كالغمامة في السماء • فنحن لا ننظر الى الغمامة كحالة ثابتة دائمة ، بل ننظر اليها كما ننظر الى حجر يعترض طريقنا فننحيه برفق أو ندور حوله ثم نمضي قدما نحو أعمالنا وأصدقائنا ، ولا أعتقد أن هناك مؤثرا في شخصيتنا كأصدقائنا ، ففيهم من هم أعظم منا ، وفيهم من هم أقل • الأولون يجعلوننا ننسى غرورنا ، والآخرون يجعلوننا نحمد الله على نعمه ، واذا أحببنا صديقا نعترف بتفوقه ، فقد رضينا بالمكان الثاني بالنسبة له • وهذا هو الايمان في أبسط صوره •

هذه هي مواجهة النفس فلننظر في مواجهة الحياة ••

يرسم متكن Menneken في كتابه « العقل البشري » صورة فذة لهذه المواجهة فهو يسمي الوسط « بالموقف » situation ليشعرنا بأننا لا نواجه موقفا بعينه كل يوم • فالناس ثلاثة أصناف : صنف يواجه ، وصنف يهرب ، وصنف يدمر • أما المواجه فهو الذي يحسن الملاءمة والانسجام • وأما الهارب فعصبي أو مجنون • وأما المدمر ، فهو شخص يدمر نفسه أو يدمر الوسط ليتخلص منه وهذا هو المجرم أو المتمرد الثائر أو العبقري •

على أن هنالك صنفا لا يقوى على المواجهة بل يحول هروبه الى عمل فني يداري به فشله •• ذلك الشخص هو الكاتب أو الشاعر أو الفنان ••

علم النفس في خدمة الأدب

يمكن أن يقال : ان علم النفس استقل بنفسه وصار علمـــا خاصا قائما بذاته في أوائل القرن الماضى ، والسر فى ذلك أن علم النفس لم يكن تحدد بعد ما هو • والذى لا حدود له لا يدعى استقلالا • والذى لايعرف بالضبط عم يبحث وفيم — لا يستطيع أن يقــوم على دعائم ثابتة فقد كان المفهوم أنه يبحث فى النفس • والنفس ما هى ؟ لا أحد يعرف • ثم قيل بل يبحث فى العقل • والعقل ما هو ؟ لا أحد يعرف • وقيل بل يبحث فى السلوك الانسانى • وهذا التعريف انما هو هرب مما نجهل الى ما نعرف • ولكن القوم ما لبثوا ان عادوا الى تعريف علم النفس بأنه علم العقل برغم ما اكتنف كنه العقل من غموض •

ولعل السبب فى ذلك هو ديكارت الذى جعل بأبحاثه المكان الاول فى الوجود للعقل وحده • وساعد على ذلك ظهور شـــــاركو وتلاميذه الذين أثبتوا أن العقل شيء معقد ملآن بالمجاهيل وان العــــلم ينتظر الرجل الذى يرسم لهذا العقل خريطة صحيحة •

وشيء ثالث نبه الاذهان الى طبيعة العقل وأهميته : ذلك هو ما حدث فى النفوس من الالتواء والشذوذ ، بسـبب الاحداث والحروب والكوارث العـــــالمية •

فلا عجب أن ينتهى الادب المبـاشر الى أدب رمزى ، وذلك ناشيء من اختفاء العقـــــل السليم البسيط وظهـــور أغوار من العقل كانت هادئة فانتزعتها الحوادث الى السطح وجعلت لها أهمية أكبر وبدلت لون الكتابة تبعا لتلك الاغوار التى صعدت الى السطح •• أعنى بهذه الاغوار العقـــل الباطن •• ولا أعنى بذلك أن العقل الباطن لم يكن معروفا من قديم • كلا بل كان معروفا • ولكن فرويد وحده هو الذى شرح أهمية العقل الباطن وخفاياه وامكانياته وقواه الديناميكية • وبحث علم النفس بحثا قائما على الاستقراء العلمى المنطقى المنظم • ومن هنا يعتبر فرويد أول من جعل علم النفس علما قائما بذاته •

ولقد سبق فرويد أستاذه شاركو اذ كان يعالج العصبيات بالتنويم، فانتقل الأمر الى بحث ما هو حادث فى داخل تلك النفسيات التى اذ اتضح بغير جدال أن العقل طبقتان واعية وغير واعية • أما غير الواعية فهى أهم من الواعية • وانهـــا جد جديرة بالتحليل والتعليل والشرح والتقصى • وأهميتها الكبرى تتوقف على أنها مجال صراع فظيع ، بل أكثر من لون واحد من الصراع • كأنما العقل الباطن مرجل يغلى • وهذا هو السبب فى

تلك القوة الديناميكية الهائلة التى تنطلق من كبتهـــا فتحدث التشنجات وغيرها من أعراض الهستيريا ٠٠

واذا كان لفرويد فضل فهو فى اكتشاف هــذه السيكولوجيـة الديناميكية التى غطت على السيكولوجية القــديمة ، الاستاتيكية ، التى لم تكن تعلو على عوامل سلبية هادئة تمشى من سبب الى مسبب ٠ وليس قصدى الآن أن أتحدث عن فرويد ولا عن العقـــل الباطن ولكنى أريد أن أصل الى نقطة واحدة هي أن العقل طبقات وأن هذه الطبقات فى حاجة الى استكناه أغوارها كطبقات الارض سواء بسواء ٠

وهذا ما حدث بالضبط فان العلماء المحدثين من مدرسة فرويد وغير مدرسته أخذوا يسبرون أغوار هذه الطبقـــات ويطبقون ما علموا على كل ما يتصل بالسلوك الانسانى ٠ ونعترف أنه ما زال أمامنا الشيء الكثير ، ولكن أكثر تقدمنا جاء فيما يختص بالفن وخاصة بالأدب ٠ فقد كنا نفهم الادب فهما بسيطا ، كنا نعده «التعبير الجميل عن عاطفة جميلة» أو بعبارة أخرى تعبير وجمال ٠ أو تعبير صادق عن شعور صادق ٠٠ ما أبسط هذه التعاريف ٠ وما أبسط الادب آذن ٠

وما أكثر ما يتقارب الادباء شبها اذا كان الادب هو هـــذا الشيء البسيط ٠ وما أبسط أن يتصور العقـــل وحدة Umity يشعر ويفكر ويريد فى مسطح واحد وبوعى واحد ٠

لاشك أن هناك « طبقة » تلى الوعى فما الرأى فيها ؟ ما الرأى فى الالهامات التى نلهمها ونحن بعيدون عن الوعى اليقظ والتفكير الحاضر ؟ ما الرأى فى ذلك العقل الثانى الذى كشفه التنويم وجعله حقيقة لا جدال فيها ؟ ما الرأى فى الذاكرة ؟ ما الرأى فى الدهليز الموصل بين العقلين ؟

لو اردت تشبيها بين نظرتنا للعقل اليوم ونظرتنا له سابقا ، لمثلت بالمحطة القديمة فى بساطتها والمحطة المعقدة الحديثة بطبقاتها المتشابكة المتعددة وسككها المتنوعة ، ومواصلاتها المختلفة ٠ ان ما يحدث فى محطة كهذه صعودا ونزولا ، ذهابا وايابا ، شبيه بما يحدث فى العقل الانسانى، عندما نستعرضه على ضوء العـــلم الحديث ، ونحن نسمى ذلك الزحام ، وتلك الاتصالات ، التداعى الحر « free association »

هذا التداعى أول مفتاح للفهم ٠ فان هذا الارتباط ، هذه الصـلات بين المعانى والالفاظ والاخيلة ٠ هذه الحركة traffic هو ما يستعمله الايحاء suggestion فى مختلف مظاهره ٠ فى معاملاتنا وآدابنا وحياتنا على الاطلاق ٠ لفظة منى اليك تنطلق الى وعيك ، فتمر بالدهليز أو السلم ثم تنحدر الى الباطن فتتزاحم — تتداعى — حولها الالفاظ المتشـــابهة ، أو تستيقظ بها الحوادث النائمة فتوحى اليك فتتكلم أو تعمـــل ٠ هذا هو الايحاء الذى يعمــــل من طريق التداعى الحر ٠ وميزة الادب الحديث أنه استغل هذه الظاهرة أوفى الاستغلال ٠ وقد يقال : انه تجاوز حدوده عند بعض الادباء المحدثين وسمى عندهم « الاستثارة » Evocation أى أنه يلقى اليك بالكلمة المفاجئة كقنبلة ذرية صغيرة فيحدث عندك ما يسمى «لفتة

ذهنية ، فلا يستثير عندك كلمة فحسب بـل صفحة وصفحات . وحادثة وحادثات ويجعلك لتوك تسبح فى عالم من الصور والتأملات .

وقد يقال : ان هـذا الايحاء قديم وان العرب عرفوه وغير العرب استعملوه فى كتاباتهم من قديم ، فهذا شاكسبير مثلا يقول فى ما كبث :

« هذا هو النور يكثف وهذا هو الغراب يضرب بجناحيه الى الغابة القائمة كالعقاب » ..

ان ماكبث هنا يتكلم بما يوحى بسواد الضمير وظلام الجريمة وقتام الحياة .

ولكنه تدبيج صريح .

الكلمات تحمل ما يطلب منها وتؤديه فى اللون المنـاسب ، ولكن الايحاء عند المحدثين يجعل اللفظة تؤدى أوسع وأكبر من معناها حتى لكأن اللفظة روح كبيرة مجنحة . فهذا مثلا قول ستيفن سبندر فى مثل موضوع شاكسبير :

اطلال خربة فارغة .

تنسج الرياح ..

هذا الكلام الموجز يوحى بالفراغ ثم بالاشباح ثم بالعناكب ..

ولقد يعترض فيقال : اذا كان الكاتب لا يرسل الكلمة بمدلولهـا المعروف فكيف اذن نتفق جميعا فى فهم ما يعنيه . أى انه اذا خالف المنطق المألوف فكيف نتابعه فنقول : ان الكاتب هنا يهمه تداعى الانفعالات قبل كل شىء . وليس للانفعالات منطق ولا نظام . واذا كان الادب شـعورا انسانيا مشتركا فالشاعر مجيد بقدر ما يثير انفعالات انسانية مشتركة . وهو غير ظافر بمكان ممتاز ، اذا لم يوجد غير استثارة انفعـالات غامضة خاصة به هو ، ومفتاحها عنده وحده .

وهذا هو أكبر النقد الموجه للأدب الحديث ، على انك اذا تلوت القصيدة الخالدة « الارض الخربة » للشاعر اليوت . اذا قرأتهـا بامعان تاركا عقلك يسبح فى ذلك « الضباب المتعمد » ، كمـا يقول مالارميه ، فستشعر بعظمة هذا الشاعر لانه أول من اسـتعمل الطريقة الجديدة من الشعراء المحدثين ، وقد أرخت هذه القصيدة عصرا جديدا فى تاريخ الشعر العالمى الحديث ، عصرا استغلت فيه قوى العقـل الباطن فى الادب أقوى استغلال .

على أن هذه القصيدة فوق فضلها السابق استحدثت أمرا جديدا على الادب الا وهو التركيز الشديد . على أن هـذا التركيز المستساغ اللائق الجميل عند اليوت قد يساء استعماله عند غيره فيشـبه البرتقالة التى تأكلها بعد ذهاب عصيرها .

على أن خلاصة ذلك ان الأدب الجديد هو الحصول « على أكبر النتائج بأقل الوسائل » .. وقد تكون المبالغة فى ذلك سلاحا ذا حدين .

آننا نستخدم علم النفس فى الايحاء والتحليل ومعنى ذلك ان الشعر صار فنا ايحائيا والنثر فنا تحليليا ، وان لم يخل بالطبع من ايحاء .

والايحاء والتحليل معناهما ان فن الادب ليس أمرا بسيطا سهلا كما كان مفهوما • فالشاعر عليه أن يحمل مشـــعلا يغوص به فى الأعماق ثم يرتفع مكتشفا فهو حينا باحث فى منجم وحينا محلق فى أعال مجهولة أى أن الحدود الضيقة الموروثة الرتيـــبة التى رسمتها الكلاسيكية قد قضى عليها • وعلى النثر أن يثور الثورة نفسها • والثـــورة قائمة على انه من الآن يجب على كل فن أن يبحث الامور فى تفاصيلها لا فى جملتها •

ولنفصل الآن بالضبط معنى كلمة « الايحاء » « suggestion »

فالكلمة الانجليزية تحمل معنى أبعد من مجرد الايحاء • انهـــا تعبر عن الاقتراح • عن محاولة الاقنـــــاع ، تعبر عن استثارة ، عن بعث همة وايقاظ عزيمة ، وهى تتوسل الى ذلك بكل ما يتوسل اليه الانسان حين يحاول التأثير والاقناع •• تتوســـــل بالرمز والتلويح والهمس • تتوسل ببعث الذكريات والخواطر الغالية • تتوسل بما يستعمله النوم من تخدير الوعى ، تصنع ما يصنعه أهل الدعاية بالتكرار • وأخيرا تضرب على أوتار حواسنا بالايقاع الموسيقى • كل هذه العناصر تتوافر فى الشعر القوى ، ففيه الرمز ، وفيه الذكريات البعيدة وفيه التكرار (فى القوافى والتفاعيل) وفيه الموسيقى بكل ألوانها •

ويعرف « آودن » الشعر بأنه « ذلك الكلام الذى لاينسى Memorable speech • وقد ينطبق القول على الشعر والنثر معا ، والفرق بينهما أن الشعر معادلة جبرية انسانية ، والنثر مسألة حسابية مفصلة » •

على أن فرويد أثار ضجة هائلة باعتباره الاديب مريضـــا بالعصبى Neurotic ودليله على ذلك :

١ ــ ان الأديب طفل كبير • أى لم يفطم سيكولوجيا • وذلك لتعلقه بأسباب الماضى وتشبثه بذكرياته ، واصراره على بقاء القيد الوالدى قائما •

٢ ــ انه شخص لم يستطع أن يلائم بين الحقيقـة والواقع فهو اما يهرب أو يغوص أو ينطوى فى عالمه الخـــاص • فليست قصة هاملت غير مركب أوديب ، وليس شعر بودلير كله الا تفصيلا لمركب أوديب •

ولكننا فى عصرنا الحالى نحاول أن نجنب الشعر والشعراء الهروب والانطواء ، ونحثهم على مواجهة الواقع ، والنزول الى الميـــدان الحقيقى ، والسؤال هو : كم من الشعر سيظل شعرا حقيقيا عندما تفلـــح هـــذه المحاولة ؟

رسالة العقل

تطور العقل البشرى

مشكلة العقل البشرى مشكلة قديمة جدا ، فمن أقدم العصور والفلاسفة يحاولون أن يحددوا كنه ذلك « الشيء » الذى يميز الانسان عن كل ما عداه من المخلوقات ، حقيقة أن الانسان من يوم أن وجد على الارض أخذ « يفكر » حتى يمكن أن يقال : ان هذا التفكير هو الطابع الانسانى الاول ، ولكنه كان يفكر فيما حوله ويستعرض ما يدور بنفسه ويترجم مايبدو له بحسب ما يقتضيه حفظ الذات وحفظ النوع .

اما التفكير فى طبيعة ذلك « الشيء الذى يفكر » فشيء حديث العهد جدا بالنسبة لعمر الانسان على الارض وقد تم فى مراحل تتبع تطور البشرية منصبا فى القالب الذى جرت به البشرية فى عهودها المختلفة : مثال ذلك أن طبيعة العقل الهمجى طبيعة شيطانية محضة ونحن لا نزال نمارسها فى أكثر أحوالنا ، ومنا من لا يمارس غيرها ، ثم تتلوها طبيعة العقل التبريرى وهو العقل الذى يعمل على حسب نوازعه ثم يأخذ فى «تبرير » ما صنع • فهو عقل متميز محاب لما كمن به أو أحبه أو أعتقده •

ذلك هو العقل البشرى فى فجر المدنية • وما زلنا نمارس هذا النوع من التفكير كثيرا فى عهدنا الحاضر ، وقد جر علينا آلاف النكبات والكوارث •

ويتلو هذا العقل فى سلم التطور العقل السيكولوجى ، وهو الذى يحلل ويتعمق فى الفهم •

وأخيرا العقل الموضوعى، أو العلمى ، وهو الذى ينظر الى الاشياء من حيث هى ، بقطع النظر عن أى شيء آخر •

العقل البدائى : كان الانسان الاول يعيش فى الظلمات ولذلك كانت أكثر رؤآه أشباحا ، فاذا جلس يفكر فى ذاته أحس بشبح فى داخله يمشى ويقدر على التنقل ، ويبدو اليه فى الاحلام ، وهذا أول احساسه لشيء فى كيانه يعى ويتحرك ، وقد دعا الاستاذ تيلور ذلك الشيء « الروح الشبح » وهو وصف موفق •

ويعتبر هذا الدور فى تطور العقل من حيث أنه جزء من الوجود غير منفصل عنه (animism) غير أن الدور الثانى ما لبث أن جاء حين آمن فلاسفة اليونان الذريون بقوة ذرية للعقل تجعله منفصلا عن الوجود وان

كان لا يزال لاصقا بالمجتمع ومندمجا فيه ، ولعل العقـــل الانسانى فى القرون الوسطى كان من هذا الطراز ، أما الدور الثالث فهو الدور الذى يلى القرون الوسطى على وجه التحديد • وهو دور العقـــل المستقل الذى انفصل عن الوجود وانفصل عن المجتمع ، وهو الذى وصفه ديكارت وتحدث عنه وسماه العقل المحض pure reason

ولكن هذا العقل المستقل المنفصـــل لا يلبث أن يشـــعر بحاجته للمجتمع ، فيندمج فيه مع المحافظة على استقلاله وهذا هو العقل الحديث • وأحسن تعريف له «أنه ذلك الميزان الذى يمكننا من السير فى ركب الحياة» «The adjustor» على أن ذلك الميزان الآدمى ليس آلة ، بل وحدة تتكون من ثلاثة عناصر : الشعور ، والذكاء ، والارادة ، وهـــذه العناصر مندمجة معا اندماجا كليا ، كاندماج الموج فى الموج • أى اننا نشعر ونتعقل ونريد فى وقت واحد • وقد شبه أحد علماء النفس العقل الآدمى بقطار وقـــوده الشعور ، وتعقله السائق ، وارادته الفرامل •

أما الشـــعور فهـــو الخصيصة الآدمية الكبرى ومعنـــاه الحقيقى « الاحساس بوجود آخرين لهم من الأهمية والحقوق ما لنا » وهو الآخر مركب من عنصرين : المعرفة ، والانفعـــال ، أما المعـــرفة فمعرفة علمية اخصائية ، ومعرفة سيكولوجية مبنية على الاحاطة والملاحظة والشمول ، وأما الانفعال فهو الحمـــاس الذى يصاحب المعرفة ويلهبهـــا ويستحثها للعمل •

أما الذكاء الآدمى فمكون من العناصر الآتية :

الاختيار ، والمقـــارنة وادراك الفروق ، واستخلاص النتـــائج ، والتحليل ، ثم التركيب أى الخلق •

أما الارادة فمقترنة بالعمل وكيفية العمـــل ، هى السلوك الانسانى Behaviour ، ونحن فى هذا الباب لانزال نجرى على الطريقة الحيوانية من حيث التجربة ، والاهتداء بالخطأ والصواب والاصح أن نسميها طريقة التحسس والتنقيب •

ولكن الفرق بين الانسان والحيوان ، ان الانسان يتعلم ويعـــلم أما الحيوان فيحتفظ بتجربته لنفسه حتى لقد قال أحد علمـــاء الحيوان : ان القرد لايقلد غيره كما هو شائع ومعروف ، بل يقلد جنسه ، وحتى الانسان يتكبر على تقليد غيره ، ولولا وجود أفراد قـــلائل يسميهم دارون « أنواع جديدة » variation فى كل قطيع ، تفكر للقطيع وتقوده وتتطلع اليه ، ما أمكن تقدم الجنس البشرى ، عن طريق هذا التقليد الجبرى •

ولقد أوجز روبنس خصائص العقل البشرى فى ميزتين :

ربط الامور بعضها ببعض ، عن طريق الاصالة أو عن طريق التقليد ،

وربط الامور يكون بالتمييز بين ما هو عام وما هو خاص ، ثـــم الالتقاء ، ثم التبويب ، ثم وضع الاسم على الشيء المبوب المختار المنتقى ،

ثم ينتهي بعد ذلك الى خلاصة ما ، وهذا ما نسميه ربط الامور ، أما في العقل الحيواني فالامور عامة مختلطة ، والنتائج لا تستخلص عن الطريق السالف وانما عن طريق التجربة العملية المحضة ٠

ولكن نتساءل أخيرا ما سر هذه « الكينونة » التي تختـــار وتنتقي وتربط ؟ ٠٠ هل هو وحدة مستقلة ؟ ٠٠ هل هو ظاهرة فيسيولوجية ؟

يقول برجسون ورايه من أهم الآراء : ان العالم دوامة متغيرة في كل لحظة وأن هذه الدوامة التي تنشد من وراء التغيير كمالا وعظمة ، لا يمكن أن تكون مجرد آلة أتوماتيكية ، بل لا بد فيه من يد ــ كيد الحائك ــ حين يقطع الثوب قطعا ، ليستطيع الحصول على شيء كامل منه أخيرا ، وبينما هو يقطع الثوب يسمى كل قطعة باسمها ٠ وبعدها ينتهي من حيـــاكة ثوب يعلقه في مكان ما ، وقد كتب عليه اسم صاحبه ٠٠ ولا شك أن العقل الانساني انما ساعده على ذلك اختراع الكلام ٠

ولكن هل سلم العقل الإنساني بعد كل ذلك من طبائعه الاولى؟ كلا ، فان الانسان الاول كان يؤمن بقوى خفية ، يستسلم لهـــا ولا يناقشها فنشأت فيه العقلية ذات المعتقدات التي لا تناقش « Uncritical belief » ونشأت على أثر ذلك « البنود » التي يضعها القوى للضعيف ليطيعها طاعة عمياء ، القوى استسلم للقوى الخفية وخضع لها ٠ والقوى يشرع للضعيف ليؤمن كما آمن ويستسلم كما استسلم ٠ وهذه البنود هي «التقاليـــد» وأقرب مثل لها النجاسة والطهارة، وما هو مناسب للأخلاق ، وغيرمناسب٠

هذه العقلية البدائيةلهاتين الصورتينظهرت في تاريخالعقل مرتين: المرة الأولى في الانسان الفطري ، والاخرى في العصور الوسطى ، ونحن في عصرنا الحاضر لم نتخلص منها مطلقا ونحن نعاني منهـــا ومما انحدر الينا منها على الاجيال ، عناء شنيعا وعبودية أشـــنع ٠ ومن العجيب أن أكثر التقاليد التي نمارسها اليوم ــ بغير جدال ولا مناقشة ــ انحدرت الينا من الانسان الاول ، وكان عهدنا بها أمس القريب ٠

ولكن الفترات التي جاءت بين ظهور هـــذه العقلية البدائية من حين لآخر لم تساعد على محوها ؟

حقيقة لقد قام في عصر اليونان ما يسمى بالعقلية «التاريخية» وآية هذه العقلية أنها أخذت تناقش هذه المعتقدات ، أخذت تتحرر من القيـــود القديمة ولقد كان ذلك في أعلى صورة عند سقراط ، ولا شك أن أفلاطون وأرسطو قاما بدورهما في التحرير ، ولكن الجميع لم يتحرروا من الاعتقاد بالقوى الخفية ، والاشباح الجاثمة وراء الطبيعة ٠ والسبب في ذلك أن العقل كان عند هؤلاء متفلسفا محدثا مجادلا ، وقد كان عليه أن ينزل الى عـــالم التجربة حتى يتكيء الى الحقيقة ، وحتى تستطيع التجربة أن تبدد أشباح الخرافات ، ولكن الصناعات اليدوية كانت كلهـــا بأيدي العبيد ، ولم يكن من المتيسر أن تنزل الارستقراطية الذهبية الى أسواق العبيد ٠

من هذا يتضح لماذا وقفت الحركة التحريرية للعقل جامدة ! ولماذا عاد العقل البدائي الى الظهور !!

ان عقلية القرون الوسطى قسمان : قسم ينتهى بسانت أو جستين ٠ وقسم يبدأ بعده ، أما القسم الاول فكان فيه شيء من النور اذ كان عهدا تمتزج فيه الديانة بالفلسفة ، ولكن الفلسفة كانت تعتمد على السلطة فى اكراه الناس على قبولها ٠ أما القسم الآخر فقـــد انصرف الناس فيه عن التفكير فى الارض وأخذ الشيطان نفسه يتطور ، فسمى نفسه « الخطيئة » وأخذت محاكم التفتيش تعقد وتحاكم من ينحرف أى انحراف عن التعاليم المنشورة بوساطة مجلس القساوسة ، ولكن شيئا هاما نشأ فى وسط هذا الظلام الذى أغلقت فيه دور العلم ، وأحرق فيه العلماء أو سجنوا ، ذلك أن هذه التعاليم غذت الغرور الانسانى ، فاعتقد الانسان أنه محور الكون، فالسماء تتدخل فى شئونه ، وتراقبه وتحاسبه كل لحظة من لحظاته ، ثم ان الشيطان ليس له من هدف الا اغواء هذا الانسان ٠

اذن فالانسان شيء هام جدا ٠٠ نفض الانسان عنه فجأة عبـــارة القرون ، وأخذ ينادى بعظمة العقل الانســـانى ، وأخذ كذلك ينـــادى بالسيطرة على الطبقة ، ولقد صدرت هذه النداءات من جهات متعددة على ألسنة عباقرة ظهروا فجأة ، كل فى مكان ٠

ولا شك أن أعظم هؤلاء ـ من حيث تحرر العقل وتطوره ـ هـــو «باكون» فقد كان أول من دعا الى الطريقة العلمية التجريبية وفصلهـــا وبينها فى كتبه ، فكانت أساسا للعقلية الحديثة ومنهاجا أدى الى التطور الاخير الذى لا يزيد على قرنين من الزمان ٠

وخلاصة آراء باكون ، انها الدعوة الى استعمال خصائص العقل الانسانى من حيث التبويب والمقاربة والتحليل واستخلاص النتائج بطريقة تؤدى الى عقلية خلاقة ، وقد دعا الى التحرير من عبودية الماضى ، قائلا : ان نهر الزمن لا يحمل فوق سطحه الا ما خف ولم يكن غاليا ، أما الغالى الثمن فقد رسب فى القاع ٠

ولكن هذا التحرير العلمى العملى كان يمشى جنبا الى جنب مـــع التطور الاقتصادى ، فكان من اللازم أن يحدث شيء جديد ٠ ذلك هو أن يصير العقل العلمى اجتماعيا اقتصاديا فلنا أن نسمى العقل الذى نتوقعه فى المستقبل العقل الاجتماعى social mind وهو يرمى الى شيئين :

الاول الملاءمة بين العقلية والفردية والحالة الاجتماعية ٠

والآخر اقرار النظام الاقتصادى « economic structure »

وفى كتاب روبنسن الذى أشرنا اليه ، يقول : انه لاصلاح العـــالم يجب أن نصرف النظر عن كل ما جربناه سابقا فافلس : لقد جربنا التأثير بالتخويف والعقاب فأفلســـنا ، وجربنا التعليم فلم نخلق منه غـــير أرستقراطية ذهنية ، وجربنا الوعظ فلم يجدنا شيئا فبقى علينا أن نجرب اصلاح الذكاء الانسانى ٠ اننا لا نزال نفكر بعقل الانسان الهمجى ، اننا لم نتخلص بعد من الخرافات والمعتقدات التى تحتـــل من نفوسنا مكانا مقدسا ، ولأننا لانزال استبطانيين نعيش فى أخيلتنا بدل أن نســـتعمل

حواسنا • ونحن من أجل ذلك ندافع بكل تحيز عن كل مايتعلق بمعتقداتنا الثابتة • ونحن نتحيز لكل ما نحب ومن نحب • هذا القـــانون قانون التمييز العام ، انحدر الينا من أسلافنا ولم نتخلص منه الى اليوم ، وهـو السبب فى الانقسامات والحروب فان الانســـان يتحيز لقومه ويتعصب لعشيرته ولدينه ، ومن ثم يكون حكمه على الاشياء خاطئا لان الحكم مصبوغ بالعاطفة المتحيزة ، ولا شك أننا نتحيز للقديم ونجل الماضى ونحن جميعا مؤمنون بالفطرة ، محافظون بالفطرة •

ونحن لانزال نفكر بعقلية القرون الوسطى من حيث الخطيئة والعقاب والثواب ومن حيث الاستسلام المطلق لما تمليه هـــذه العقلية ، ومن حيث اننا لانجد مخرجا ولا خلاصا دون هذه الطرق •

على أن العقل الذى ندعو اليه هـــو العقل العملى التجريبى العلمى الاقتصادى أى العقل الذى يعلم أن مهمته هى الاتجاه نحو عالم جديد وان عليه أن يواجه مشكلات العالم علما واقتصادا • وانه اذا لم يفلح فى هذا الاتجاه فانه لا شك يصل الى النهاية التى رسمها الاستاذ منكن فى كتابه « العقل البشرى » فقد رسم لنا صورة عملية جميلة ، بين فيها أن الانسان عليه أن يواجه موقفا دائم التغيير situation فان أفلح فى الحياة سعد واذا لم يفلح فاما أن يحطم الموقف أو يمزقه أو يحطم نفسه أو يمزقها ، واذا لم يستطع التحطيم أو التمزيق فانه يهرب • واذا لم يستطع هذا ولا ذاك فانه ينكر الفشل ويوجه جهوده الى عمل فنى يستتر به فشله ويدارى به عجزه عن مواجهة الحياة العملية ومن الطراز الاخير أكثر الفنانين والكتاب والشعراء •

رسالة الشباب

اذا تكلمنا عن الشباب اليوم ، فاننا نتحدث أولا عن أخطـاء أكثرها بل جلها أخطاء المجتمع ٠

وأقصد بالمجتمع ما به من معلمين وقادة وآباء وأمهات ، ماذا صنع المجتمع لاصلاح شبانه ؟ الينا خلاصة لما صنع الى اليوم ٠

١ ــ **التعليم** ، قد أدى دائما الى ثقافة شخصية ولم يؤد الى المواطن الصالح ، وكثيرا ما أدى الى المعرفة التامة ، ولكنه قليلا ما أدى الى خلق شخصية سليمة ٠

٢ ــ **الوعظ والحث على الاخلاق الحميدة** ، هذان أيضا لم يؤديا الى أى اصلاح فى الاخطاء الشائعة ، فالغالب أننا نمل الوعظ ولا نتأثر به الا اذا كان مهيأ فى قالب فنى تستوعبه النفس وينفذ الى القلب وبعبارة أخرى ان لم يكن ذلك الوعظ مؤديا الى اقناع قلبى فــلا فائدة منه ، وحقيقة قد يكون الكلم البليغ مؤثرا ، ولكن تأثيره لا يعدو الساعة التى ألقى فيها ٠

٣ ــ **التعليم الدينى** ، انى أومن بالدين كعنصر عام من عنــاصر الاصلاح ويكفى أن نستعرض سير الانبياء والرسل وما لاقــوه فى سبيل الدعوة وما تجشموه فى سبيل الانسانية وما صادفوه فى حياتهم وهــم يحاولون اصلاح العالم ٠ يكفى ذلك تقويما للنفوس المعوجة وهديا للنزعات الضالة ولكن اضطرابات العــالم ، والكوارث المتلاحقة قلقلت الايمــان ونشرت فى العالم موجة من القلق وعدم الثقة ، جعلت المفكرين يفكرون فى عكاز جديد يستند اليه العالم الاعرج ، ويكون قوة أخرى بجانب الايمان تشد أزره وتسنده ٠ هذا العكاز هو الاصلاح السيكولوجى وقد فصــل ذلك الاستاذ شيللر فى كتابه « مستقبل الانسان » تفصيلا قيما فليرجع اليه من يريد ٠

على أن الاصلاح السيكولوجي يجب أن يبدأ من أسفل الدرج ليصل الى أعلاه ، والدراسة السيكولوجية لاشك تقتضى الالمام التام بعلم النفس، ومن لم يستطع الالمام التام فعليه على الاقل بالبديهيات ٠ فلنذكر هنا أن الآلة الانسانية تتكون من وقود وسائق وموتور ٠ فلنبدأ بالطفل ، فهــو كله وقود تقريبا ، والعقل الذى عنده لا يعدو بضع خصــائص جنسية موروثة ٠ أما الموتور لدى الطفل فشىء غشيم صغير تسيره العاطفة ويمكن أن نسميه العنــاد ، أو التشبث أو الانانية أو ارادة القوة ٠ فاذا أضفنا لذلك الخيال وأحلام اليقظة أكتملت لنا صورة الهمجى الصغير المســمى بالطفل ٠

فيتخلص علاج الطفل ــ بناء على هذه الصورة ـ بمعالجة الارادة الجامحة ، أو بالعاطفة العاصفة ، وأهــــم ما فى عواصف الطفولة الغضب والخوف والميل الى الهدم • ولنعترف أن المربى ميال دائما الى كسر شوكة العناد •

وقد اختلف المربون فى هذا الباب ، فمنهم من أشار بالعنف ومنهم من أشار بضده • والرأى الحديث لا يميل الى هذا العنف ، لانه هدم بغير بناء ، ويميل بالاكثر الى بناء شيء يقوم مقام العقل ، ليقاوم ذلك التيار الجارف • ان العقل فى دور الطفولة كما بينا لا يعدو بضــــع خصائص وراثية ، فأى شيء نستطيع أن نقيمه مكانه ، حتى يتم نمــــوه ونضجه • « العادات » وصدق من قال : « العادة تكون الفكر ، والفكر يكون الخلق ، والخلق يكون القدر » فبناء العادات هــــو الذى يجب أن يجرى بلا هوادة ويتم بلا رحمة ولا شفقة ، وقد نصح أكثر العلماء ، بشأن العــاصفة التى أشرنا اليها فى نفس الطفل انها من الممكن تشتيتها بتوزيعها على مجهودات مختلفة ويمكن كذلك تحويلها ، فان الصفير فى الخطر أو الخوف يمكن أن يتعود اصطناع المرح والشجاعة ، فالواقع أن اصطناع المرح يذهب جانبا كبيرا من الحزن ، ولا يخفى أن الصفير ــ أى ادعاء عدم المبالاة ــ يعين على الاحتمال والشجاعة •

وأعود فأقول ان الطاعة العمياء ، فى تكوين العادات فى أثناء الصغر ، نوع من العبودية يؤدى الى حرية عجيبة فيما بعد • فلو اننــا استعرضنا العقل البشرى كطريق لوجدنا أنه مكون على الاكثر من طرق محفــــورة ، نقشتها يد المربى أو البيئة ، هذه الطرق هى العادات • ولو اننى وثبت من الكلام عن الطفولة الى الشباب ، فذكرت بعض أخطائه ، كقلة ضـــــبط المواعيد ، وعدم الثبات ، والكذب وغير ذلك لوجدتها لا تخرج عن انهــــا « عادات » ساء تكوينها فى الصغر •

حسبنا هذا القدر عن الطفولة فلنمر الى مرحلة خطيرة جدا • ألا وهى اليفاعة أو المراهقة •• فهى الدهليز الذى يؤدى توا الى الشــباب ولكننى قبل أن أمضى فى هذا الدهليز أريد أن أتحدث فى الأثر الناشيء من معالجة ارادة القوة بالعنف والاخضاع • أو بضد هذا وهو الملاينة المتطرفة • ان الحالة الاولى تؤدى الى صراع conflict والحالة الاخرى تؤدى الى التدهور والفساد delinquency الطفل فى الحالة الاولى ثائر منطو على نفسه وأن يكن هادئا فى الظاهر ، وفى الحالة الاخرى ينشأ الطفل اتكاليا ويشب كلا على المجتمع • ولمــــا كانت تربية الطفولة تتلخص فى أمرين : اعداد شخصية خالية من العقد ، واعداد شخصية غيرية ، فكثيرون من الاطفـــال يخرجون من الطفــولة بالنقيصتين فيتعرضون لكل الكوارث النفســـية الممكنة •

هذا هو الدهليز ، ولكن لدى ما أسميه دهليز الدهليز •• أى المرحلة التى تسبق المراهقة ، وهى التى يتكون فيها الحكم reasoning أى المرحلة التى نعلم فيها أولادنا كيفية استعمال العقل ، ولما كان أكثر المنطق الذى نستند اليه متحيزا ، فان الخطأ يجيء من هذا البـــاب أكثر من أى شيء آخر • والغالب اننا نخطيء فى حل مشاكلنا العقلية بســــبب هذا المنطق

المتحيز • وهذه مسألة عميقة الأثر فى تكوين عقلية الشباب ، ففى هاته المرحلة التى ندعوها دهليز الدهليز ، على المربى أن يكون فى الشباب العقلية التى تنظر الى الأشياء نظرة مجردة ، بعيدة عن أهوائنا ونزعاتنا ، ولقد يكون من المرانة أن يعقد مجلس عائلى لحل مشاكل الاسرة ، ويكون رائد أفراد العائلة المناظرة المجردة عن الهوى والنزعات الشخصية •• بهذه العقلية يجب أن يدخل الصبى الى المراهقة •

فى المراهقة يكون الفتى أو الفتاة فى عالم جديد ، فالغدد ناشطة ، والحياة الجنسية أخذت تزدهر ، والدنيا مملوءة بالمفاتن التى تغرى بالسيطرة عليها •• ومن هنا تكثر المخاوف المبهمة التى يأبى المراهق التصريح بها • فهو يرى كل شىء فى جسده جديدا ناميا فيتعثر ، ويلوح عليه عدم الانسجام • والواقع أنه يرى صورتين فى المرآة ، صورته الحقيقية ، وصورة رجولته فى مرآة ذهنه والصورتان تتعارضان وتتدخلان فى تصرفاته •

هذه الصورة التى تبدو فى مرآة الذهن لهـا أثر بعيد فى نفسية المراهق ، فانها تخلق ثورة دفينة وخاصة فى المنزل حيث تتعارض الصورة الذهنية مع الصورة التى يرى بها أهل المنزل فتانا أو فتاتنا • فالمراهق فى المنزل ثائر متبرم ولا يجد راحة الا فى المدرسة حيث جو الذى يساعد على أطراد النمو الحقيقى •

فعلى ذلك يجب الالتفات الى هذه الثورة الدفينة ،وعرفان مصدرها وحسن ترجمتها •

فاذا اتفق أن يكون المراهق قد خرج من الطفولة بعقدة وصراع ، فان الشباب سيكون جحيما تاما • وهنا يجب أن نقف قليلا لننظر الى معنى الجنس فى المراهقة • ان الجنس فى المراهقة خيال وتأليه وتقديس ومثالية • على أن الفتى بقدر ما يتخيل عن الفتاة ، فبينه وبينها نفور ، لأنه خارج من سيطرة أم ونفوذها ، فهو يخشى الدخول تحت نير جديد •

ومن هنا يتبين سر النزاع بين الشقيق وشقيقته فى المنزل بغير داع ولهذا السبب دعا المربون الى منع اختلاط الجنسين فى هـذا الدور من التعليم لا من أجل المسألة الجنسية فقط لأنه قد اتضح أن كل ما يذكره المراهق عن معرفته بالمسألة الجنسية افتراء وادعاء ، وأنه قادر على الكلام فقط ، أما العمل ، ففى دور الشباب حين يكون الذكر قد نظر الى الأنثى من زاوية جديدة ، خيالية وعملية • على أن لدور المراهقة هذه النواحى على العموم : عدم الاستقرار ، تعدد الاهداف ، التحرر من القيود لدرجة الاستهتار ، تشتت الفكر ، الاستغراق فى أحلام اليقظة ، التعرض لمركب أوديب أو على الاقل لتثبيته •

فالأخطاء التى يمكن أن يخرج بها فرد ما الى الشباب هى :

١ ــ أنانية ممتدة من الطفولة •

٢ ــ صراع مبنى على العقد •

٣ ــ استهتار وميل للهدم والتحدى ٠

٤ ــ اندفاع عاطفي خيالى ٠

هذه هي بالذات أخطاء الشباب التى يجب الالتفات اليها ومحاربتها ٠ وأهمها فى رأيى الصراع بمسبباته ومختلف ألوانه ، فهذا الصراع هو السبب في الشقاء الذى يخيم على نفوس الشباب فى هذا الجيل ، وهذا الصراع مقترن أشد الاقتران بتنوع الاهداف وتشتت المطامع والميول ، والضباب المتكاثف حول المرامى ٠

يبدو مما ذكرت أن الرجولة الناضجة ، هى الرجولة الخالية من الأخطاء السالفة ٠ أى : هى سلامةمن العقد ، وايجابية ، واتزان ، وغيرية ٠

أما سلامة الشاب من العقد ، فمعناها ألا يكون الصراع عنده مرضيا، مبنيا على قوى متضاربة مكبوتة ، وقد فصلت المؤلفة كوسجريف ذلك تفصيلا واضحا فى كتابها « سيكولوجية الشباب » فذكرت أن الصراع قد يكون بين الحقيقة والواقع ، وبين ما نتخيله وبين ما نحن عليه فى الحقيقة ، وبين فكرتين ، وبين عاطفتين ، وبين الرغبة والطلب وبين الروحانية والمادة، وبين ما هو انسانى وغير انسانى ، وبين الذاتية والطاعة وبين القيود والحرية ، وبين فكرتنا عن نفسنا وفكرة الناس عنا ٠

وهذا الصراع مع الأسف ينتهى الى أمرين :

١ ــ الشقاء الملازم ٠

٢ ــ تمزق الشخصية ٠

وقبل أن أصف العلاج لهذه الاخطاء أضيف كلمه عن الحب عند الشباب : فأقول : انه شىء جدى جدا فى حياة الشاب والشابة ، والعلاقة التى بين شاب وأول فتاة يعرفها قوية جدا وعميقة وهو يبنى على تلك العلاقة أهمية كبيرة ويصاب بحزن بالغ يوم تنفصم ؛

على أن الانجليز يسخرون منه ويسمونهCalf loveاى الحب العجول ! ولست من هذا الرأى ، ولا أميل الى السخرية بالحب فى دور الشباب فان آمال الحياة وما تتطلبه من الاستقرار تتركز عند الفتاة فى شاب يمثل أحلامها ، وعند الشاب فى فتاة تطابق أمانيه المتخيلة ، فيجب ألا تسرع بعدها النزوات، ولكن المهم هو أن نميزها من سطحيات المراهقة٠

أما العلاج فهو :

١ ــ على الشباب أن ينظر نظرة صادقة مجردة عن التحيز ، لنزعاته وأهوائه ٠

٢ ــ عمل « ميزانية » للمطالب وتصفيتها بين حين وآخر لنعلم بالضبط ماذا نأخذ ؟ وماذا ندع ؟ ٠

٣ ــ على الشاب أن يتسم بطابع من المرونة ليس فيه ميوعة

ولا تخنث ، حتى يمكنه أن ينسجم مع الوســـط ، لأن الشخصية تماسك وهدف ، وفى الوقت ذاته تفاعل بين الفرد والوسط ٠

٤ ـ على الشاب أن يعلم أن النجاح فى كيفية الوسيلة لا فى بلوغ الهدف ، وأن كثيرا من الاخفاق أنبل وأشرف من هدف متحقق ٠

٥ ـ على الشاب أن يعلم أن هذه الاخطاء طبيعية ومتوقعة ، ويجب ألا تعتبر مهانات نعاب عليها ونخجل منها ونداريها ونطليهـــا بطلاء خادع كاذب ٠

هذا ما يجب على الشباب ٠ أما ما يجب على المربى فهو أن يعلم أن من الاخطاء ما يمكن أن يستغل فيصير كمالا ، أو أرفـــع من الكمال ، فمن صفات المراهقة المثالية والحماسة وعبادة البطولة ، فيمكن أن تستغل هذه الصفات استغلالا كاملا على شرط ألا تتحول المثالية الى صراع والحماسة الى اندفاع عاطفى جامح ، وعبادة البطولة الى هدم وموت ضمير ووصولية ٠

هذه هى أخطاء الشاب ، وواجبات المربى وقد وجدنا أن أكثرها من صنع المربى ، وقد وضح لنا أن أغلبها امتداد لظل سابق ، فلنبدأ بتلافيها قبل وقوعها وهذا هو العلاج الواقى الناجع ٠

رسالة النقد

نتساءل أولا ، هل لدينا نقد أدبى ؟ يكاد يكون الاجماع : لا • وحتى الذين يحررون هذا النقد فى الصحف هم أول من يعترفون بأنه لا يدخل فى باب النقد ولا ينتمى اليه بصلة •

ماذا نسمى هذا العبث اذن ؟

الافضل أن نسميه « عرضا » ويقابلها بالانجليزية كلمة Reviewing لنفصل هذا الهراء عن الجد المسمى «النقد» أو criticism

واعتقادى أن السبب الاول فى ضياع حرمة النقد ، هـو الخلط بين الموضوعين على غير وعى • وهناك أسباب كثيرة لهذا الانهيـــار الأدبى :

أولها أننا فى عصر قلت فيه القراءة الجدية •

والثانى النزعة المادية التى تســـيطر على العصر فحتى استعراض الكتب لم يعد استعراضا بل صار نصفه اعلانا ونصفه دعاية ، فانك تجد فى آخر الحديث عن الكتب أين طبعت ، وأين جلدت ، ثم الثمن ، وأحيانا كثيرة جدا ، نقرأ حديثا عن الكتاب ، ونبحث عن اسم المؤلف فلا نجده ، لأن عارض الكتب ، له عقلية عارض الأزياء ••

والسبب الثالث ، السرعة أو « اللهوجة » على حد تعبير المرحـــوم المازنى ، فالعارض ليس عنـــده وقت ليقرأ ، ومن ثم ليس عنـــده وقت ليكتب ، وانه ليخيل لى أحيانا أنه قرأ صفحة فى أول الكتاب ، وصفحة فى آخره ، واكتفى بهـــذا ، ومن المحزن أن عرض الكتـــاب لا يكون له أهمية الخبر من حيث الأهمية والحيوية ، الا حينما يكون المؤلف من الذين لاسمهم دوى فى آذان الجمـــاهير • وقد حاول أحد الكتاب الأمريكيين أن يفرق بين العرض والنقد ، فقال ان العارض متحدث متعجل ، والنـــاقد عارض متئد ، وحاول آخر أن يفرق بينهما • فقال ان العارض يعطى الكتاب أو الكاتب صورة على حين أن الناقد يضع هذه الصور بين صور أخرى ، حتى نتبين على ضوء المقارنة قيمة هذه الصورة •

وأخذ كاتب آخر يفرق بينهما بشكل أوضح فقال ان العارض صاحب كلام خاص لايعلو على الخصوصية ، ولا على الغرض المباشر ، ولكن الناقد يخرج من الخصوص الى العموم ، ويسمو على الهدف القريب ، فهو هنـــا يستوى مع الفنان •

ويعـــود كاتب آخر يقول : انك لاتخرج من العارض الا برأى ذاتى مبتسر ، فى حين أن الناقد يجب أن تصل عبر أحكامه الذاتية الى ما يصح

أن يكون دستورا أدبيا ذا مواد شاملة ودعامة خالدة الاثر . هذا الرأى الأخير هو رأى ريمى دى جورموز .

على أن النقد هو ذلك الشيء الذى يخرجنا من عالم الثرثرة ، الى عالم القيم الباقية Permanent values ولاأذكر من الذى قال ان الفرق بينهما هو الفرق بين البوليس والقاضى ، أو بين القسم والمحكمة ، والمحنة هى فى ان هذا البوليس ، البوليس الأدبى جاهـل أولا . و«ثانيا» هو من الغرور ، بحيث يحتفظ بتحقيقاته فى ملفاته الخاصـــة ، فى الوقت الذى نحن فى حاجة الى من يحيل هذه الأوراق الى قاض تكون احكامه بمثابة قوانين أدبية يرجع اليها بين الحين والحين . فأين هذا القاضى ؟ هو غير موجود على صفحات الجرائد والمجلات ، ولا فى الاذاعة ، ولكنه منطو على نفسه ضـمن مكتبته وأسفاره يبنى أحكامه الصادقة على شيئين : الذوق الأدبى ، والآخر فهم دقيق للعملية الأدبية . وكيف تجرى فى أعماق الخاطر ، مبــدأ ونضجا ونهاية ، وقد يكون هذا القاضى قد قرأ آراء القراء والشراح الذين سبقوه ، ولكنه لايتقيد كل التقيد بآرائهم ومعتقداتهم لانه يعيش فى القرن العشرين ، ولان النقد فى هذا الجيل يجب ألا يسير على غرار المنـــاهج القديمة ، ذلك لان النقد مصاحب للوعى الانسانى ، مساير لتطور العقلية البشرية ، مماش حتى للمعتقدات الدينية ، فمن هذا يبنى القاضى الحديث أحكامه على عقلية العصر منتهيا الى ما يلائم ذوقه وتفكيره، متخلصا من قيود القدم ، متخطيا أسرار التقاليد البالية .

هذا القاضى موجود ، ولكنه قليل ونادر ، وهو يؤثر أن يسـتقل بأفكاره وأحكامه ، مفضلا عزلته على الاندماج فى هذا الصخب الصحفى الذى أساء الى النقد ، ونزل به من حالق .

ولقد دعانى للمحاضرة عن موضوع النقد ، اننى قد عدت الى الكتب الحديثة فى النقد — رجعت الى « اير كرومبى وريتشاردز ومرى وروبرت ليند» ، وكانت عودتى بالذات لاقتناعى بأننا فى زمن جديد ، يحتاج لوعى جديد ، وبالأصح فى زمن جديد ، ذى وعى جديد يحتاج لطراز من النقد جـــديد . فما يكفى أن يقـــال ، ولو كان هـــذا أحدث ما يقـــال ، أن العمليـــة الأدبية هى تجربة شـــعورية ، تندمج فى اللاشـــعور وانها تدخل مفصلة الأجزاء لتلتئم فى الداخل ، ويضفى عليهـــا ضباب اللاشعور وأحلامه وتدرجاته وامكانياته ثم تنتهى الى افضاء .

فعندنا من ناحية تجربة شعورية ومن ناحية أخرى « توصـــيل » Communication وفى الوسط مـــكان العمليـــة ونحن نعـــلم أن أغلبها يتم فى العقل الباطن بين الفكرة والعـــاطفة والظلال والايقـــاع . كل هذا نعلمه ، وقد تناوله كل الكتاب المحدثين ولكن بالرغم من ذلك قد بدت فى الجو الأدبى ظواهر غريبة ، أولها ابهام فى القيم ، وغموض فى المقاييس ، وثانيها وهو المهم اختفاء النقد بالذات من عالم الأدب .

هناك انتاج أدبى ضخم بدون شك ، ولكن هذا «الترف من الفوضى» على حد تعبير جوفرى ويست ، أو بعبـــارة أخرى هـــذه البضـــائع المكدسة فى أســـواق الأدب بلا ضابط ولا صيرفى يبين صـــحيحها من

زائفها ، يدل على أننا فى عصر متسم بخاصية من عدم المبالاة ، وعـــدم الالحاح فى ايجاد روابط ، وضوابط ٠

هذا الوعى بالضبط هو الذى يجب تشريحه ، وتفهمـــه ، والتغلغل فى طواياه ، لنفهم كيف حدث ؟ وهـــل يرجى له غـــلاج فى المســتقبل ؟

كلما فكرت فىالوعى الجديد يخيل الىأن هناك متكأ أفلتمنا ، وسندا قد أضعناه باهمـــالنا ، هـــذا هو التراث الأدبى Tradition أعنى بهذا ذلك الحبل المتصـــل بيننا وبين ماضينا الأدبى ، ذلك الجيـــل الذى تنسج خيوطه أجيال وأجيال من التجـــارب الأدبيـــة الثابتـــة ٠ نحن الآن ننظر نظرة نصف ســـاخرة الى ســـفر قيم كديوان الحمـــاسة ، وأكثرنا ينظرون الى الشـــعر العـــاطفى بالسـخرية التى ينظر بهـــا الآخرون الى العقل المهيمن على ديوان الحماسة فى التربية ٠

فنحن اذن فى مزيج من الثورة والسخرية ، وعـــدم الرضا ، وبين هذه الانفعالات المتضاربه لا نعرف أين نقف بالضبط ؟ ولا ندرى لنـــا طريقا خلال ضباب المستقبل ؟ ونحن فى هـــذه الحيرة نتساءل : هـــل افادتنا مجهودات المؤلفين الممتازين أمثـــال السحرتى ومندور والشـــايب وسيد قطب ؟ لا أعتقد أنها أعطتنا فرصا للمقارنة ، وأعطتنا فرصا للفهم والتحليل ٠ ولكننـــا لم نزل بعـــد فى ظلمـــاتنا ، لان هـــده المنـــاهج المضطربة بين الكلاسيكية والرومانتيكية لا تؤدى الى خطوط ثابتة يمكن السير وراءها ٠ وليت اضطرابها فقط فى التردد بين هذين المـــذهبين ، الموضوعية والذاتية ، بين المنطق والعاطفة ، بين اللفظ والمعنى ٠٠ الى آخر ما هنالك من هذه الدروس الملتوية ، بلا انتهاء ولا غاية ٠

ولقد يلتفت الباحث نحو الماضى ، فيجد عهدا من العهود ، عهدا قديما فى الواقع ، كانالنقد فيه مبنيا على الفطرة ، ولكنه على كل حالكان سليما ومعقولا ومحترما ، وكانت هذه الفطرة تشبه الايمان الدينى فى الاقتناع والقوة ، ولذلك جرى النقاد المحدثون على مذهب جديد ، هو أن يقارنوا ، عندما يستعرضون تطور المجتمع ، بين تطور الوعى ، وتطور الاعتقـــاد الدينى ٠ ففى العصر الذى نشير اليه ، كان الانسان يستمد وعية كما كمـــا يستمد قواه الدينيـــة من مصـــدر خارجى ، وكان هـــذا المصدر الخارجى من القوة والسلطان والاقناع بحيث يجعل الوعى الأدبى والوعى الدينى متماسكين فى ظل النظم والقوانين والتقاليد التى شرعهـــا ذلك المصدر الخارجى ٠ لم يكن هناك انقسام فى الوحدة النفسية ، لم يكن هناك عقل وعاطفة ، بل هناك عقـــل محض ، تختبىء فى ظله العـــاطفة وتستدفىء الروح ٠ وكان هذا العقل يستمد جبروته من عقل شامل محيط يملى ولا يناقش ٠ فى حماية هذا العقل كان النظام موطدا ، والاستقرار سائدا ، والدروب مشتركة والمسالك موحدة ٠

سار هذا النظام فى القرون الوسطى ، حينما كان أرباب الديانات يستعينون بقوة الفلســـفة ــ أى بقوة المنطق والعقل ــ فى اجبار الناس على قبول المناهج الدينية أو الأدبية أما فى عهـــد النهضة وبعدها ، فقد

استيقظت « الروح » الانسانية واستيقظت الذاتية الفردية ، واستيقظ الوعى الداخلى فى النفس البشرية • كل هذا لتحد الروح من سلطان العقل ولتثبت أنها جديرة عن طريق البصيرة intuition بوعى مستقل كامل لايعتمد على امداد خارجى هذا الانفصال فى شبكة الوعى ، هو بالضبط ماجرى فى النفس البشرية ، فأثر بدوره فى المجتمع والدين ، والأدب

أما فى المجتمع ، فهذا معناه الثورة على الدكتاتورية . وقيـــام الديمقراطية •

وأما فى الدين فقد جعل الناس أقرب الى التشكك واللادينية ، لان الايمان المبنى على مجرد التأمل العميق يختلف عن الايمان المبنى على المنطق والواقع ، فالأول أقوى وأعمق ، ولكن الآخر أكثر سطحية ، وأعم اتساعا وشمولا •

أما فى الادب فمعناه خلع سلطان الكلاسيكية ومبايعة الرومانتيكية فى الادب •

ولكننا فى وقت التحام العناصر النفسية كنا أقوى وأشد نظـــاما وترتيبا ، ولكننا اليوم ـ بانقسام الوعى ـ شطرنا هذا الوعى ، ولكننا لم نفلح فى اعادة الالتئام اليه مرة أخرى: من ذلك نتبين ، أن هذا التصدع جرى فى انتظام ، التئام جديد ، التئام بين دعاة العقل دعاة الروح دعاة الموضوعية دعاة الذاتية ودعاة الطاقة الخارجة والطاقة الداخلة •
Trascendant and immanent

يقول بوناميه دوبريه : «لم تر الدنيا عصرا من العصور ظهرت فيه الحياة تافهة ، والوجود سخيفا ، والقيم زائفة كما يتبين اليوم • ان قوى هائلة من الارادة الانسانية والتساؤل تنبت فى محيط كان يسوده الاعتقاد الأعمى المطلق • فنحن فى الواقع لانزال فى عصر تحول Transitior يتميز بالشك والقلقلة ، وطابعه الاستخفاف بكل شىء ، وانكار كل شىء » • قال تولستوى : ان أول مراتب الفن والنقد الاحساس الكامل بالحياة بقسميها العقلى والاجتماعى • فمن أين يتيسر لنا الفن والنقـــد ، ونحن فى عصر تحول مفطور على تجاهل الحياة والقيم ؟ على أنه يبدو للذى يقرأ الروايات والسير أنها تلخص فى بضع كلمات : فلان الفلانى فى سن السابعة عرف القيمة الحقيقية لوالديه فأنكرهما • وفى البلوغ عرف قيمة التعليم فحقد عليه ، وفى الشباب عرف قيمة الاخلاق فثار عليها ، ثم تغلغل فى المجتمع فاتضح له فساده فتمرد على أوضاعه ، وفى سن الخامسة والعشرين انتهت القصة بهذا النظام الأسود المتشائم • هذا ملخص عام لجميع روايات هـذا الجيل بدون استثناء ، والنتيجة الجدية أن نرى ولا نزاع أن الأدب الأبتر فرع من الشجرة البتراء •

ولكننا فى الحق يجب أن نقف موقفا جديدا اذا أردنا أن نخلق عالما جديدا يجب أن نقف موقفا متفائلا بدل هذا الموقف المتشائم القاتم • وأول خطوة لذلك أن نعترف أن التساؤل ، هو مدخل النقد •

وعلينا أن نذكر دائما ماقاله ماتيو ارنولد فى هـــذا الباب وهو بالحرف : « النقد هو مايخلق موقفا ذهنيا ، تستفيد منه القوى الخالقــة» . ومعنى ذلك أن الفن يبلور القيم الانسانية ، أما النقد فيجلو هـــذه القيم المتبلورة للانظار .

وقديتساءل يتسائل : وما علاقة الذوق الفنى أو الادبى بالنقد ؟ أليس لهذا أهمية ؟ فنجيبه أن الذوق هو بالطبع أساس النقد والفن وقد يكون هو النقد التعبير التلقائى للذوق ، ولكنه فى الواقع أعلى من ذلك ، فانه الذوق شيء باطنى « على كيفه » أما النقد فهو وعى الفن ، ويمكن أن يقال كذلك : انه وعى الذوق ، أعنى بذلك انه الفن الواعى المنظم ، أو الذوق الواعى المنظم كما تشاءون .

criticism is the consciousness of art and test

وخطوة أخرى فى سبيل تفهم موقفنـــا الحاضر هو ألا نجزع من تنوع واختلاط المقاييس . ويجب ألا نفزع من سيل الفوضى الذي يغمرنا، فان الحقيقة الكبرى أن لكل سيل اتجاهه ولكل انتقال هدفه ، وان هــذا التنويع فى الاتجاهات والمذاهب ، يحمل ـ على رغمه ـ خطوطا رئيسية . فاذا فهم الناقد هذه الاتجاهات ،فعليه أن يكون محصنا ضد التـــأثرات العابرة أعنى أن يكون محيطا بميول نفسه ، وميول جيله ! وملما بالميول والاتجاهات الانسانية الماضية ومستعدا للمقارنة واستخلاص القيـــم

وأزيد ذلك شرحا أن على الناقد أن تكون وظيفته «كاتب حسابات الفن» عليه أن يدون الحسابات ، ويرصد الدخل والخرج ، ويعين الرصيد ويمحو من العملة القديمة ، ليبدلها بعملة جديدة فهو من ثم يكون حافظ التراث ، حافظ التراث القومي والتراث الانسانى ، فان لم يكن هناك تراث فعليه خلق تراث . هذه وظيفة هامة جدا للناقد وهو فى أثناء عمله هــذا يجب أن يدرك اننا لم نعد فى عصر يؤمن بقيم مطلقة لاتناقش ، فان القيم المطلقة مستحيلة ، وانما الذى نبغيه هو الاختلاف فى ظل وحـــدة قابلة للنمو والتحسين .

ولما كانت الفلسفة والفن على اتفاق فى أنهما يحددان ويخلقان القيم الانسانية ، فان الناقد يجب أن تكون له ذهنية الفيلسوف والفنان معا . ولو أن مرى واليوت يعطيان العقل الفلسفى الأهمية ولكن كمـا شرحت سابقا قد بينت علاقة النقد بالفن ، وفى الواقع يهمنى أن أجد الناقد فنانا ذا نشاط ذهنى قوى . على الناقد اذن أن يكون له عقل فيلسوف واحساس فنان . وهنا نقف على عتبة الموضوع الكبير . عقل أم عاطفة موضوعية أو ذاتية ؟ معنى أو لفظ ؟ كلاسيكية أم رومانتيكية ؟

انه مهما تعددت المذاهب وانقسمت لاتنقســـم أكثر من مــذهبين الكلاسيكية والرومانتيكية :

أما الكلاسيكية فتصور العبودية للعقل والنظـــام والتقـــاليد

أما الرومانتيكية فتصور تحرر الروح ، والتمرد على الاوضـــاع ،

والانطلاق الشعورى التام : ففى الاولى الاستقرار فى ظل النظام • وفى الأخرى التنفس فى ظل فوضى لذيذة •

واذا استعرضنا العمل الفنى على الأجيال ، خيل لنا أن هناك جهـدا موصولا للخلاص من الكلاسيكية ولكن هذا غير حقيقى ، فان كل جيـل يخيل له أن الجيل الذى سبق مثقل بالقيود ، فعليه الخلاص من قيوده • وهو فى الواقع لايمكنه أن يحطم تلك القيود لانها قيود أصبحت جزءا من الهيكل الأدبى والاجتماعى يود الذى يسكنه • وهو لايدرى – أن يخلق متنفسا من الهواء الطلق ، فى أبهاء قصر عابس الحجرات متجهم المعالم ، ولكنه قصر يقف رمزا للمجد ولا يزال أثره باقيا • وسيظل •

والخلاصة أن الاجيال المتعاقبة عاملة على اعطاء الزمام للروح بدل العقل ، وللشعور بدل المنطق الصارم •• هذا هو الاتجـاه الرئيسى للجيل الحاضر • فالكلاسيكية كما يريدها ناقد مثـل اليوت لم تعد صالحة مطلقا ، والرومانتيكية كما يريدها loya كذلك لايمكن أن تنطلق على هواها •

فما القيمة التى يتوخاها الناقد الحديث – ناقد المستقبل فى العمل الأدبى ؟ يجب أن يحاول الناقد وضع العمل الأدبى فى مكانة من القيم الانسانية الثابتة وبعبارة أخرى يتعدى الخصوص للعموم ، وهو لن يصل الى هذه النتيجة الا اذا اعتبر النقد وعيا للحياة الانسانية •

قال تشيكوف لاحـد اصدقائه الذين يكتبـون من برج عاجى : « تعال ، اختلط ، استغرق فى الزحام ، تنفس أدبا ، لـكى تعرف كيف تنقد أدبا » •

فقيمة العمل الادبى أو الفنى هو القيمة التى نسـجلها فى درج الحياة الانسانية فاذا فهمنا ذهبنا الى صورة العمل الادبى ، والعمـل الادبى غرفة ذات بابين ، باب يطل على الحياة ، وباب يوصل الى الحياة •

من الاول نسـتمد تجربتنـا الشعورية ، ومن الآخر نوصـلها للناس •

أما الغرفة الداخلية ففيهـا الفـكرة والعـاطفة واللفظ والمعنى والصورة والظلال ، والموسيقى والانسـجام والايقاع • أى انها «المطبخ» الذى تطهى فيه التجربة لتخرج ناضجة •

وأهم مافى التجربة قيمتها الانسانية ، وأهم ما فى المطبخ الانسجام والتوازن والسبك ، وأهم مافى الباب الخارجى سـهولة التوصـيل ويسر التفاهم ، وكيفية الاقناع والتأثير ، وبث الاحساس بالقيـم التى أوحت بها الينا التجربة ، وكشف مواضع الجمال والأهمية فى الحيـاة والوجود • وقد يكون للشعر طبخ غير النثر ، وللنثر طبخ غير الغنـاء أو الموسيقى ، ولكنها فى اختلاف النسب والمقادير على حين تبقى الاصول على حالها من حيث التوازن والانسجام •

فالعمل الفنى يجب أن يحدد فى عين الناقد بمقدار الشعور الانسانى المنبت فيه ، والتوازن الجارى بين المتنافضات من عمل وعاطفة وفكرة ومعنى .

وأخيرا هل أفاد هذا العمل اتصالا ؟ فما قيمته وما أثره فى الأدب الحاضر ، والمجتمع الحاضر ، وما قيمتـــه وأثره بالنسبة للتراث الأدبى العام ؟ .

هذا هو نقد المستقبل أو مستقبل النقد .

رسالة السياسة

ان اعتبار السلوك السياسى على أنه مسألة عقل وتدبير ، قد أصبح على ضوء علم النفس الحديث اعتبارا عتيقا ، وبعـد قليل سـيصير خرافة ، فقد ثبت أن السلوك السياسى أبعد وأعمق من أن يكون مجرد عقل أو دهاء . وأقصد بالسلوك السياسى ، ذلك السلوك الذى يسوس الحكام أو الساسة به الناس .

ومصدر هذا التغير فى الاعتبار هو بروز مسـألة «الغريزة» والعودة الى التحدث بشأنها فى علم النفس الاجتماعى وفى السلوك الاجتماعى على الاطلاق بشكل يدعو الى التأمل العميق . لا ندعى من ذلك أن علم النفس ، ذلك العلم الذى لايزال ناشئا ، يمكن أن يطبق تطبيقا عاما ، فى كل مسألة أو أنه يمكن تطبيقه جزافا . على أننا اذا لم ننتظر منه فائدة مبـاشرة ، فانه مما لاجدال فيه أن الميدان الأخير هو له فى غير جدال ، ولقد ذكر رفرز فى كتابه الأخير عن السيكولوجية والسياسـة أنه كان يضع برنامج المحاضرات والامتحانات فى الجامعة مدة ٨ سنوات فى المدة الأخيرة وأثار العجب فى نفسه أنه فى هذه السنوات كلها لم يذكر كلمة الغريزة . وها هو ذا قد عاد اليها .. بحماس وقوة ، ليقيم دعائم السلام عليها ، وعلى ماتبين له من دراستها .

على أنه ينكر المقارنة بين العقل والغريزة . ويقول : ان هذا عبث . ويعتبر العقل غريزة متطورة ، وينكر نسبة السلوك الى العقل . ويعرف الغريزة تعريفا جديدا هو «ان الغريزة اتجاه موروث نحو السلوك» ويقول : انه من صفات الغريزة عموميتها . وكثيرا ما ننخدع بشكل من أشكال الغريزة اتخذ زيا جديدا على الايام . واخذ يبدو كأنه لون من ألوان العقل والذكاء ، فاذا أخذنا نحقق وجدنا انه غريزة تشكلت من جـديد بحسب ظروف جديدة ، وأهم هذه الظروف الكبت أو الاستعلاء . ثم يعـود فيقول : ان العقل فى نظره عبارة عن «لجام» يمسك بالغريزة ، ويكبح جماحها ، ويقودها وفى يده عنانها .. ويؤكد كذلك أن هذا الموجه ، لايوجه نفسه ، وانمـا يوجه «النواحى العاطفية للغريزة» .. على أن النقطة التى نريد أن نبدأ بها هى هذه : هل يمكن الاعتماد على علم النفس الاجتماعى فقط ليقود خطانا الى ما نرجوه من السلامة ؟ .

لقد حاول أكثر العلماء مزج علم النفس الاجتماعى ، وعلم الاجتماع معا على فكرة انهما يلتقيان فى أن الاول استنتاجى ، والآخر استقرائى

أى اننا ندون ملاحظاتنا بالآخر ، ونستخلص النتائج بالاول ولـكن رأى «جراهام ولاس» فى أن هناك ما يسمى «الميراث الاجتماعى» Social heritage وهو ميراث غير غريزى non instinctive خارج عن السـلوك الغريزى • جعل هذا المزج مستحيلا • فهناك من السلوك المتوقف على الميراث الاجتماعى مالايقوم على قواعد «سيكولوجية» ، ولكنه يفيدنا فائدة أكبر فى الناحية السيكولوجية • ولما كان السلوك السياسى ، جزءا من السلوك الاجتماعى العام فان الملاحظات والمقارنات والاحصائيات سيكون لها أثر بالغ فى توجيه السياسة وجهة نفسية ، وعندنا أمثلة كثيرة على ذلك ، امثلة هامة جدا ••

وأول هذه الأمثلة ، ما جاء فى كتاب وستر مارك المشهور عن عاطفة الانتقام • فهو قد قرر تقريرا سيكولوجيا مؤداه أن عاطفة الانتقام أصيلة فى النفس الانسانية وهذا مبدأ خطير جدا معناه أن استقرار السلام فى العالم غير مستطاع ، فجاء ريفرز وغيره يبحثون هذه الطبيعة • طبيعـة الانتقام فى سلوك القبائل ، وفى الانسان الأول ، وفى مختلف الطبقات ، فانتهوا الى نتيجة مخالفة لرأى وستر مارك مخالفة تامة ، ومعنى هذا انه لكى ننتهى الى رأى صحيح يجب أن يسير كل علم فى طريقه ، على أن يسير العلمان على محاذاة وعلى اتصال •

ومثل آخر ، هو مثل الساعة ، ذلك هو حق المرأة السياسى ، اننـا اليوم نتعلل فى حرمانها هذه الحقوق بما نعرفه من سيكولوجيتها • فنحن نقول : أن مخها أقل من مخ الرجل ، وبذلك يكون ذكاؤها أقل ، وان قوة احتمالها أقل ، وان عاطفتها جامحة ، وان تكوينها يعدها فقط للأمومة •• وان •• وأن ••

ولكن بقيت مسألة هامة • ان من السلوك الانسانى والسـياسى ماهو غير غريزى ، وما هو بلا شك جزء من الميراث الاجتماعى • وهـذا السلوك مبنى على أسباب غير جلية ولكن أثرها لايمكن انكاره ، فمن ثم يتضح لنا أن سلوك المرأة السياسى يجب أن يوضع موضع التجربة على الاقل . وبمعنى آخر يجب ان نتبين سـلوكها فى الانتخـابات والدعاية ووسائلها فى البرلمان ، وفى الادارة وفى غير ذلك ، فمن يدرى ربما كان فى سلوكها السياسى مايلقى بدوره ضوءا جديدا على طبيعة ذلك السلوك ، وربما كان فيه ما يصحح لنا أخطاء سيكولوجية أوقعنا فيها جهلنا وعجزنا عن المغامرة والتجربة .

وثم مسألة أخرى غاية فى الأهمية • وهى أن الادارة السياسـية تجرى باللجان • واللجان على حسب مانعرف قسمان: استشارى وتنفيذى والقسم الاول ناجح غالبا • والآخر فاشل فى معظم الحالات • وقد أخـذ علم النفس يبحث فى أسباب الفشل السياسى • أى يبحث فى أسباب فشل الهيئة التنفيذية للمشروعات العامة والادارية • فاتضح أن الفشل ناشىء من أن هذه المشروعات غالبا ما تقع فى أيدى قوم لهم خاصـة سيكولوجية «الدفاع النفسى» وهى سيكولوجية قائمة على مركب النقص ، ومركب النقص يدعو الى «التهويش» وهذا التهويش هو دفاع عما تحته من

العجز الحقيقى والقصور . فابتدعت فى أمريكا طريقة تدعى طريقة الشريط الاحمر ، وهى طريقة آلية يمشى فيها التفنيــــد من خطوة الى خطوة حتى تنتهى الخطوات بلا تردد ولا تلكؤ . ولكن هذه الطريقة فشلت فى السلم . وان نجحت فى الحرب . فشلت فى السلم لان حالة السلم تقتضى المرونة والكياسة وادراك الطبيعة الآدمية التى تتطلب الأيدى المرنة الذكية لتسيير دفة أمورها .

من هذا يتضح لنا أننا لانزال فى أول الطريق . على أن الطريق واضح مهما بدا للعين من احجار وعقبات .

فاذا عدنا الى مابدأنا به الكلام من أن كل سبــلوك فى الوجود هو غريزى أصلا ، متجاهلين ــ بعض الوقت ــ مبدأ ولاس وهو السلوك غير الغريزى ، أى الميراث الاجتماعى . فاننا ننظر فى التعريف : «الغريزة هى اتجاه موروث نحوسلوك خاص » فنجدهيؤكدشيئين : الوراثة والسلوك . ويمكن مقارنة هذا التعريف بتعريف آخر يقرب منه ولا يقل عنه فائدة وهو أن الغريزة «عادة اجتماعية» .

هذا التعريف وسابقه جديدان جدا ، وقد محوا الى الأبد التعريف القــديم الذى ألفناه وهو أن الغريزة « دافع حيوى » أو فعل « منعكس » الخ . . .

وفائدة التعاريف الحديثة جليـــــلة جدا فهى قد فرقت بين الفرد والمجتمع . وبعبارة أخرى محت ماكان معتقدا بأن هناك فرقا بين السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى . ومحت كذلك ما كنا نسمع به عن « العقل الاجتماعى group mind . وانى أعتقد ــ كما يعتقد ريفرز وغيره ــ أن هــــذا الكلام عن العقل الاجتماعى خرافة ، فان المجتمع ما هو الا الأفراد مجتمعين وما سلوكه الا سلوك الأفراد معا .

ولقد تحدث جوستاف لوبون وغيره عن هذا العقل الاجتماعى مدللين على وجوده بحالات خاصة تحدث فى الحرب والفزع والنــكبات ، فان الناس يتصرفون تصرفا جديدا ، ويمشون على نسق غير مألوف . ولكن المحققين فى علم النفس الحديث يقولون ان ما يحدث ليس الا استيقاظ غريزة « القطيع » التى هدأت فى الطبيعة البشرية وأخمدت جذوتهــــا عوامل كثيرة أهمها الكبت والاستعلاء .

ولقد جر هذا البحث مشكلتين من أهم المشاكل ، يرتكز بحثهمـــا على الغريزة من جــديد . وينتهى التحقيق منهمــــا الى رأى قاطع ، من حيث استــطاعة البشر أن يرجعوا الى حــــالة اشــتراكية طبيعية أو لايرجعوا .

فاذا اطمأن الانسان الى أن للغريزة صفة العموم وأن هذه الصفـــة لاتموت اطمأن الى أن غريزة القطيع باقيــة فى الاعماق تعمل عملها وان تغيرت المظاهر والأزياء ولقــــد ذكر ريفرز بمناســـبة غريزة الملك أنه تحدث مع أحد أفراد القبائل الابوزنجية عن أحواله العــــامة ففهم منه

ان مايصيده ويكسبه ملك للجميع ، ولما عرف ذلك الانسان البدائي أنه ريفرز يقتصد لنفسه ويودع البنك الخ ٠٠ أخذ يقهقه ساخرا ٠٠ ما من جدال في أنه فوق صفة العموم في الغريزة ، فان لها صفة أخرى أشد أهمية هي قدرتها على المرونة والتكييف ٠ ولقد عارض ريفرز ما قرره والاس عن الميراث الاجتماعي ٠ وصرح فيجراة أن الوراثة تشمل من ناحية الغريزة ماهو مكتسب وما هو غير مكتسب ٠ وهذا مبدأ خطير جدا ، وحديث جدا ولقد بالغ فيه علماء الروس وقالوا : اننا نرث من آبائنا حتى المهارة اليدوية ، ولكن المهم أن الغريزة تتهذب وتترقى ونحن نرثها برقيها وتهذيبها ٠٠

وعاد ريفرز يضرب مثلا على ماجرى لغريزة القطيع ٠ فأخذ أولا يدلل على وجودها بشكل قاطع كأساس في طبيعة العقل البشرى السليم ٠ فان العقل اذا اختل ، كان أول مظاهر اختلاله الخروج على نظام القطيع ، والثورة على التقاليد المعروفة ٠

ثم عاد يقارن بين القطيع الآدمى من قديم ، والقطيع الآدمى الحديث ليرسى الحكم على قواعد لاتنهار ٠

فهو يقسم القطيع الى قيادى ولا قيادى ، والأخير شائع جدا في الحيوانات ، فهناك من القطعان ما يسير في جماعات لا رئيس لها ، ولكنها تعيش وتنمو وتتكاثر وتدافع عن نفسها وتهاجم على سياق جيد رائع ٠

فهذه القطعان تعمل عملها بالايحاء Suggestion والايحاء يتكون من ثلاثة عناصر : التعاطف ، والبصيرة ، والتقليد ٠

ولما كانت الطبيعة البشرية تقذف بنماذج جديدة بين آن وآخر variation فقد يحدث أن يبدو في القطيع المتشابه فرد متميز ٠٠ فيتبعه الباقون وينتقل التعاطف والتقليد والبصيرة الى ذلك الفرد ، ولكن التعاطف يصير اعجابا ، والتقليد يصير طاعة ، والبصيرة تصير أدراكا واعيا ، ولكنها مهما تنوعت مظاهرها فانها ايحاء . ولما كان الايحاء مصدره العقل الباطن ، فقد استنتج الباحثون أن هذه الخاصية الاصيلة في القطيع ، والتي تجعله يؤدى أعماله تأدية آلية سليمة في صمت وهدوء يمكن استغلالها بين الشعوب ٠ وفي ذلك تنحية للنزاع الذى لاينتهى بين الحاكم والمحكوم ٠ وقد أخذ المحققون كذلك يبحثون في تأثير « الكلمات » في الشعوب فانتهوا الى أن الشخصية هى التى توحى ، لا الكلمة ٠

اذا كان علم النفس قد وصل الى هذا الحد من البحث ، مرجعا البحث في السلوك الى الغريزة ، والغريزة وحدها ، بل الغريزة الأصيلة ،

فما المانع من تتبع الدوافع التى تؤثر فيها وتغير مظهرها ؟ ، الا يجوز أن المجتمع يمرض كما يمرض الفرد سواء بسواء ، مادمنا قد قررنا مبدئيا محو الفرق بينهما ؟ ان الفرد يمرض جسميا ، ويمرض نفسيا • والمرض النفسى أهم مافيه الكبت ، فهل الشعوب تكبت ؟ أجل تكبت • والساسة فى هذا والاطباء سواء بسواء أكثرهم يعالجون مظاهر الكبت ولا يلتمسون علله الدفينة • وأكثرهم يصفون ملطفات بدل التقصى للأسباب الحقيقية • وهناك مرضى يهربون من الحقيقة وأطباء يسيئون التشخيص لانهم لايريدون مواجهة الحقيقة •

رسالة القصة

تحدثت كثيرا عن رسالة القصة ؛ وأنا لا أعيد هنا ما قلته سابقا ؛ فالذى يبدو لى أن سنة واحدة غيرت مجرى تفكيرى ؛ وفى هـذا العصر من لم يتغير فى سنة واحدة يعد جامدا • وتمر عليه الاحداث دون أن يدرى • ذلك لان القصة كأى لون من ألوان الادب يجب أن تسـايـر العصر والا اندثرت • وقد ساءنى أننا متخلفون جدا عن الركب الحديث • ولقد كتبت فرجينيا وولف مقالا عن القصة الحديثة فبينت أن أقطاب القصة الذين نجلهم أمثال جالسورثى وكونراد وارنولد بنيت يعدون متأخرين • بالرغم من الروائع التى خطتها أقلامهم والتى نقشت فى سجلات التواريخ الادبية، واذا كان هذا هو الرأى فى هؤلاء العباقرة فأين نحن اذن من هؤلاء ؟ ولقد كتب أخيرا القصاص الذائع الصيت أوفولن فى مجلة المستمع الانجليزية التى هى لسان حال الاذاعة البريطانية فى هذا الصدد فانتقـد القصص الانجليزى الحالى ، والقصص فى العالم عامة ، نقدا مريرا ساخرا •

على أنى يجب أن أفرق أولا بين القصة القصيرة والقصـة الطويلة وأقرر مبدئيا أنهما يختلفان تماما • وان كانت بينهما وشـائج وأرحام ولأبدأ أولا بالقصة الطويلة .

قليل من الكتاب فى مصر هم الذين يحاولون القصة الطويلة ،وأكثرهم يحاولون القصة القصيرة ، لسبب بسيط ، هو ان الاولى تحتاج الى «نفس» وجهد ، وتفصيل ، ومعاناة ، وفهم ودراسة : وسبك ومبدأ ونهاية وعقـد وحوار وحبكة الخ •• حقيقة ان لكل شخص « حكاية » وحـكاية طويلة يمكنه أن يجلس ليدونها •• واذا اجتمعت بأى انسان تنهد وقال لك : ان عندى قصة طويلة ، طويلة جدا ومؤثرة جدا وأريد أن أكتبها ، واذا كنت ناشرا ، أو رئيس تحرير لمجلة ؛ وجدت فى البريد هذه القصـة الطويلة المؤثرة ، ولكنها حين تصل اليك وحين تقرؤها ، تتردد فى نشرها • وقـد يكون أسلوبها جيدا ؛ ووقائعها حقيقية فما السبب فى ترددك • أليست القصة مهما اختلفت ألوانها « حكاية » أليست كل قصة مكونة من وقائع، والجدير بالتسجيل منها هو المستمد من واقع الحياة ، ولكنك تتردد فى نشرها بالرغم من سلامة لغتها واشراق أسلوبها وديباجتها • وقـد تردها « مع الشكر » لصاحبها فيعجب كل العجب لأنك رددتها اليه . وحينما كنت محكما فى وزارة المعارف فى مسابقة القصص . كنت مكلفا بقراءة القصص المرسل للمباراة فقرأت أكداسا وأكداسا • فلم أستخلص مما يصلح الا القليل ، القليل جدا • تتساءلون الآن ولا شك ، هل الحكاية الجيدة السرد المستمدة من الحياة لا تكون قصة ؟ اذا كان هـذا لا يكون قصة فماذا يكونها اذن ؟

أجيب عن ذلك بأنك تستمع الى اثنين يقصان عليك قصة واحدة ، هى هى بعينها وقائع وتجارب وتفاصيل ٠٠ ولكنك تغط فى النوم وأنت تستمع الى الاول ، على حين يستأثر الاخر بلبك حتى تلقى ما بيدك مهما يكن هاما لتصغى اليه اصغاء تاما ٠ والسبب فى ذلك ان الاول « يحكى كل شيء » فيضيع عليك كل شيء ٠ والآخر يحسن شيئين الاختيار والترتيب selection and arrangement الاختيار انه يعرف ماذا عليــــه أن يترك قبل أن يعرف ماذا عليه أن يقول ٠ وهذه حكمة النضج والفهم والتجربة لا فى القصة وحدها ، بل فى أى عمــــل أدبى على الاطــلاق ٠ وقد كان تشيكوف يؤلف القصة فى ١٠٠ صفحة أولا ثم يحذف منها بالتدريج حتى تصل الى صحيفة أو صحيفتين ٠٠

أما الترتيب ، فهو ما نعبر عنه « بكيفية العرض » ٠٠ فأنت قدتقدم فصلا على آخر ، أو جملة على أخرى ، أو شخصية على أخرى ، أو كلمة على أخرى فيفسد الجو كله ٠٠٠ والعبرة هنا لا شك بالذوق الادبى ٠ ويتبين ذلك على أتمه لا فى القصة على الخصــــوص ، بل فى الشعر ٠ فانك اذا أخذت البيت الرائع وبدلت فى كلماته ، محافظفى الوقت نفسه علىالمعنى وجدت بيت الشعر قد فقد طعمه ، ولم يعد شعرا ولا نثرا ؛ وقد كان أحد أساتذتنا مغرما بقلب القصائد الكبيرة على هــذا المنوال ، أى بمجرد نقل كلمة مكان أخرى وتقديم الواحدة على الثانية أو تأخيرها ، ووضعها أولا أو وضعها أخيرا ٠٠

ولماذا نذهب بعيدا خذوا الآية المشهورة « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ٠ ٠ انقل كلمة أسفا من مكانها وأنت تشعر فى الحال بالقوة التى يحدثها « الترتيب » فى العمل الادبى٠

اذن فمجرد السرد لا يحدث حكاية ، ولا يحدث قصة ٠٠

تقول لى ولكنها مستمدة من الحياة ٠ فأقول : ان الواقـــع المجـرد plain foot لا يحدث تأثيرا قويا ، ولقد قال Haglett ان للعمل الادبى وخاصة القصة جناحين القوادم ، والخوافى ، أما القوادم فهى هذا الواقع ٠ أو على حد تعبيرى : التجربة الواقعية؛ أما الخوافى فهى «التجربة الشعرية » أعنى الظلال والالوان التى يضفيها المؤلف على الواقع ٠٠

ولما كانت هذه التجربة الشعريةخاصية لا تتوافر الاللقليلين أدركنا سر الاحساس الذى يجعلنا نلقى بقصة ما جانبا ونحن نقول «مش قوى٠٠» وانما نعنى نقص هذه الظلال ، فقدان هذه الاصباغ ، أو باختصار ضياع الشاعرية المطلوبة فى القصة ٠

هاتان التجربتان هما مانسميه جوهر القصة. واذا حللناهما تحليلا دقيقا وجدناهما يتكونان من الاشخاص والحوار والعقدة ، وحل العقدة ، والمبدأ والنهاية ٠٠٠ على أن بعض المؤلفين يقولون بل ان هؤلاء ليسوا فى الواقع جوهر القصـــــة ، بل الشكل الذى تصب فيه القصة Form ويقسمون الشكل قسمين : الشكل الميكانيكى ، أو الاطار الصناعى ، أو القالب ، والقســــــم الآخر : القســـــم الغريزى instinctive form

أما الشكل الميكانيكي فهو المتبع بين أكثر الكتاب الكبار مثل بينت وجالسورثي وولز • وقد كان بنيت أكثر الكتاب عنـاية بهذا الشـكل الميكانيكي ، بحيث ان الشكل عنده قد شبه ببناء هنـدسي تام الابواب والنوافذ بحيث لا نجد منفذا واحدا تتسرب الريح من خلاله •

ولكن مبتدع الشكل الغريزي ، وهو لورانس ، يقول : دعوا القصة تطابق الشجرة النامية أي انها تنبت جـذعا ثم تتفرع أفرعا ، ثم تورق ثم تثمر •

أي ان شكل القصة يجب أن يتكون من نموها الداخلي ، فهـذا هو الذي يحدد الشكل الخارجي • على حين أن المذهب الميكانيكي يبني البيت أولا ، ثم يملؤه بالاثاث والسكان ••

وبعبارة أخرى مذهب يبدأ من الخارج الى الداخل ومذهب يبدأ من الداخل الى الخارج •

على أن المذهب الاخير مذهب لورانس وفرجينا وولف مذهب خطير جدا • فهو مذهب حر ، مبني على استجابات ودوافع داروينية محضـة ، أساسها التفاعل بين الانسان والانسان ، والانسان والبيئة ، والانسان والحوادث ، فليس هناك عقدة ولا حبكة بل تفاعل مستمر • يتضـح من ذلك أن القصة تماثل فلما ملونا سريعا خاطفا •• ويتضح كذلك أن الفرق بين المبدأين هو الفرق بين ما هو مادي وبين ما هو غير مادي • بين ما هو كلاسيكي يجري على قاعدة ويتقيد بأوضاع ، وبين ما هو حر لا يتقيـد بأوضاع غير ما تمليه الحياة ذاتها ••

وقد يخيل الينا أن أصحاب المذهب المادي ، كانوا يعانون في « بناء » القصة نصبا وتعبا على حين أن أصحاب المـذهب الحر يستسلمون لفوضى لا تكلفهم أي عناء •••

حقيقة أن ابناء المذهب المادي — لكي يكون البناء متناسقا فخما كاملا — كانوا يعانون مجهودا ضخما جبارا في سبيل ذلك ، فان فلوبير كان يحبس نفسه في غرفته أياما بتمامها من أجل كلمة ، وأحيانا يخرج الى الشـارع كالمجنون وهو يشد شعره •

وقد ذكرت حكاية لطيفة عن تاكراي • فقد اعتذر عن ليلة ساهرة لاصحابه لانه يريد أن يكتب فصلا في روايته الخالدة « فانيتي فير » فأراد أصحابه أن يداعبوه فأقبلوا على منزله في آخر السهرة وفاجئوه وهو يكتب فوجدوا أنه لم يكتب غير اثنى عشر سطرا من خطه المنمق الصغير •

على أننا يجب أن نصرح ان المذهب الحر ، في أيد غير أيدي وولف وجويس ولورنس يؤدي الى فوضى لا قرار لها • وقد كان لورنس شـديد العناية بعمله ، عناية فائقة ، وكان يتوخى تجنب هذه الفوضى التي قد يؤدي اليها المذهب الغريزي في القصة • فمما يروى عنه انه كان يكتب القصـة لآخرها وأحيانا كان لايرضى عنها ، فيمزقها اربا اربا ويبدؤها من جديد •

— هذا فيما يختص بالمذهبين القائمين اليوم ، ولنا عودة اليهما بعد حين •

فالآن أتحدث عن « الاشخاص » في القصة • ان الحديث عن الاشخاص يعود بنا الى التجربة الشعرية فى القصة •

قال كيتس : « ان الشاعر أقل الناس شاعرية » ••• يعنى بذلك انه مرآة تلتقط كل شيء تصادفه ، انها تشرب هذه الشخصية وتندمج فى تلك حتى تتلاشى شخصية الشاعر الاصيلة لانها امتصت كل هؤلاء • وتفسيرا لهذا نضرب مثلا له على أتمه فى توفيق الحكيم وبيرم التونسى ، فانهما يجلسان فى مجلس السمر صامتين لا يتكلمان • فاذا انفض المجلس يمكنك أن تستخرج من عقليهما فلما كاملا لما كان وماحدث فى أتم صورة وأجلاها • لقد امتصا كل شخصية واستوعبا كل كلمة •• فاذا جلس توفيق الحكيم ليكتب عكس كل هذا فى قصصه عكسا صادقا عجيبا • واذا جلس بيرم ليؤلف زجلا وجدت هذه الصور مطابقة للأصل مطابقة مدهشة true to type

هذه الصفة الشاعرية كانت من مميزات شكسبير الاولى • والظاهر أنه كان من الطراز الصامت المستوعب • لاننا لا نعرف من تفاصيل حياته الخاصة كثيرا ، ولكننا نعرف أنه عرض كل شخصية ممكنة فى السجل الآدمى ، عرضا صادقا جبارا •

ان القصة كما ترون تطورت من السرد المحض كما هى عند جين أوستن وفيلدنج ، الى السرد المختار الجيد الترتيب كما هى فى فجر القصة العربية الحديثة ، ثم الى القصة التى لها « شكل » و « جوهر » وقد تكون هذا الشكل والجوهر فى العصر الحديث ، العصر المادى من « الواقع » فالمادية فيه تساوى الواقعية والعكس بالعكس • وتناول علم النفس هذه المادية الواقعية بالتحليل والشرح ، حتى صارت القصة أشبه بالجثة تحت مبضع التشريح • وحتى ضاع المذاق الفنى للقصة •

تسألوننى وما المذاق الفنى ؟

فأقول ان القصة كلما تطورت ماشت العصر ، حتى أصبحت « شغل عقل » clever brain work وكلما زاد عمل العقل فى الادب ، ارتفع الى برج منعزل ، وغمسته أرستقراطية ذهنية خاصة ، وصارت عينه ترى فى المجتمع فروقا وطبقات •

فاذا انتقلنا الى الفن الروسى عند دستويفسكى وتشيكوف ، وجدنا الوثبة التى كنا نتمناها • وجدنا العقل قد أسلم زمامه للروح ، فصارت القصة لا وصفا لتفاعل الغريزة مع ما حولها ، ولا لتفاعل العقل ، وانما صارت وصفا لومضات الروح ، وصفا للاعماق الهائلة التى تسبح فيها الروح البشرية • وما دامت الروح البشرية واحدة، فمن هنا تنمحى الفواصل بين الطبقات • هناك روح واحدة تسر وتتألم ، تسخط وترضى ، تحب وتبغض ، تسف وترتفع ؛ ترسف فى القيود أو تطلب الحرية • •هناك أعماق واحدة متشابهة •

وصعوبة الفن الروسى ، هى فى أن الذى يحلل الروح البشرية ، روح

مثلها تفهمها وتدرك آلامها وعذابها وحيرتها .. الفن الروسى، روح حساسة تخاطب روحا حساسة . عذاب يخاطب عذابا . آلام تخـــاطب آلاما ، آمال تناجى آمالا .. الفن الروسى اعترافات ... اعترافات متوالية . ولذلك خلا من مبدأ ونهاية . ان عالم الروح غامض فسيح وكذلك القصة فى الفن الروسى . فقد تنزل الستار والناس يتحدثون .. لم يفرغوا بعد من الحديث .

ان الفن الروسى على حد تعبير وارنر « يقبض على الأبدية فى كف ، وفى لمحة » ...

رسالة الأدب الأوروبي الحديث

التحدث عن التطور فى الأدب الاوروبى الحـديث بصفة عامة يغنى عن تناول التطور فى أمة بذاتها من الامم الاوروبية الكبيرة ، وما ذلك الا لتقارب التيارات الفكرية فى مختلف تلك الأمم ، وتأثر كل منها بالاخرى، واحتفالها بكل مذهب جديد ينبثق فى آفاق جاراتها حتى صار الحديث عن أدب احداها مشابها للحديث عن أدب الاخرى · ويمكن القول فى غـير تعرض للخطأ أن تطور الادب الاوروبى الحديث يتخذ أسـلوب التطور العلمى ·

وقد ساهمت الحربان العالميتان الاخيرتان فى التقريب بين الاتجاهات الفكرية الاوروبية ، وتبدو وجهة نظرنا هذه جلية فيما أسفر عنه نشـوب الحرب الاسبانية الاهلية ، فان هذه الحرب لا تعد محلية ، بل ظاهرة عالمية أو أممية ، وقد اعتبرها الشعراء والكتاب مظهرا لتنـازع القوى ومحكا لاختلاف المذاهب ، ومعرضا لتضارب العقائد · وعلى ذلك نزح عدد كبير منهم الى ساحتها ومن لم يشترك فيها بسيفه أو بندقيته اشترك بقلمه ·

وهناك ظاهرة أخرى تؤيد ما ذهبنا اليه وهى ان كل مذهب جـديد فى الشعر يؤدى الى التحول والتطور ، تصدر عنه نشرة تتضمن أصـوله وقواعده وتسمى « مانيفستو » · فأدباء الانجليز يذكرون « المانيفستو » الذى كتبه « وردسورث » و « المانيفستو » الذى كتبه « ف · ت هولم » أما « مانيفستو » العهد الحديث فقد ظهر فى ايطاليا وامتد منها الى باقى الامم المتحضرة · وهو يتميز بلهجته العنيفة ، ودعوته الى بتر القـديم ، وامتلائه بالشتائم والبصقات·ومهما تكن قيمة هذا المانيفستو الذى ما زال اسم كاتبه المجهول محل حدس وتخمين ، فانه كان صـورة لما تردد فى الصدور من ضرورة التحول فى الاسلوب والمعنى والهدف الذى يتعلق الادب به ويسعى اليه ·

ونحن نقصد بالعهد الجديث تلك الحقبة التى تبتدىء قبيل نشوب الحرب الاوروبية الكبرى الاولى · ويرى بعـض أهل الرأى أن تحـدد بالاشخاص لا بالحقب ، فيقال مثلا ان الشعر الانجليزى الحديث بدأ يوم نشر اليوت قصيدته الخالدة « الارض المهجورة » ، أو أن قصيدة الشاعر بردجز « انجيل الجمال » اختتمت عهده القديم ·

على أن هناك ظاهرة هامة يمكن تلمسها فى كل مرحلة من مراحـل تطور الادب ، وهى أن أصحاب الاسماء الضخمة التى تلمع ابان التجديد ، ليسوا فى الواقع المجددين ، ولا أول من غامر فى التجربة فقد تمر فترة من الزمن تعلق فى أثنائها الانظار بهم ، وتردد الالسنة آلاءهم ، ثم تتجمع

الشواهد على أن اسم الرائد الفعلي للتجـــديد مطموس فى بطون الكتب والاوراق • ونحن نذكر على سبيل المثال لما نقول الشــــاعر الانجليزى « هوبكنز » ، والشاعر الفرنسي « ريمبو » ، وكان الاول من رجال الدين فحالت مهنته دون نشر ديوانه الذى ظل وديعة لدى صـــديقه الشـــاعر « بردجز » ، فلم يطبع وينشر الا بعد موته.

أما الآخر فقد جد له ما دعاه الى هجر وطنه والنزوح الى الحبشة ، واحترف هناك التجارة ، ثم عاد الى مصر ومرض بها ، ومات في مرسيليا وهو فى طريق العودة الى بلده • وكانت لمعته في الحياة قصـيرة ، ولكنه استطاع أن يخلف ذخرا من شعر رائع شرقى النفحة، تضمن بعضه وصفا لمشاهد أغلب الظن أنها مصرية ، ومما يسترعى النظر أن أكثر المجـددين المجهولين الذين يتم التطور على أيديهم عباقرة من الشباب يختطفهم الموت في سن مبكرة ، ولا يحترفون الادب ولكنهم يظلون من هواته .

ولو بحثت فى تاريخ الادب الاوروبى المعاصر لاذهلتك قلة المجددين وأما الادباء الذين وقفوا حياتهم على نشر دعوة التجـــديد فكثيرون • وقد ذخرت ألمانيا وروسيا بأولئك المبشرين الذين نزحوا من بلادهم فى سبيل خدمة المذاهب الادبية الجديدة، ولاقى كثيرون منهم حتفهم فى ذلك السبيل، ولكن ما الدعوة الجديدة ؟ وما الشعر الجديد ؟

خلاصة هذه الدعوة ان الشعر الحديث يجب أن يساير الزمن الحديث والحياة الحديثة • يجب أن يصبح فى متناول الناس ليس بعيـــدا عن أذهانهم ، قريبا منهم لا معتصما بأبراج عاجية • وقد رأى المحـــدثون أن تكون هذه المسايرة بالتزام أمرين أولهما الطابع العلمى والآخر السرعة•

أما الطـابع العلمي فمنقسم قسمين أولهما طابع التأمل والتمحيص والشك والتجربة ؛ والاخر ألا يقف الشعر على هامش الحياة بل لا بد أن يتغلغل الى صميم الحقائق فيجلوها ، وأن يصل الى أغوار النفوس فيكشفها

وأما طابع السرعة والتركيز والاختصار فقد نادت به أولى المدارس الادبية الحديثة وهى مدرسة الصــــوريين imagists • وقد ظهرت فى أعقاب العصر الفكتورى ، وترعرعت فى نهاية العصر الجورجى •

واذا كان الطابع العلمي قد أفاد الادب من ناحية ، فقـد أضر به من ناحية أخرى ، فهو قد وصله بالحياة إذ جعله واقعيا ، ولكن تقطيع الادب تقطيعا علميا ، وتشريحه تشريحا ماديا يفقده قيمته الفنية وجمال وحدته وتماسكه • ولا يظنن أحد أن الطابع العلمي يرمى الى جعل الادب علميا ، ولكنه يدعو الى التذرع بوسائل العلم وهى الشك والتحليـــــل الدقيق والاستقراء العميق •

ومما لا شك فيه ان الراديو والسينما والصحافة طبعت الادب الحديث بطابعها الى حد كبير حتى أن الكثير من الاعمال الادبية صارت أشـــبه باللمحات الخاطفة ، أو بالعلم السريع الملون •• ولقد صـــار أدب لحظة

ولحظة لا أدب أجيال وأجيال ، وليس الأسلوب التصويري في مذهب الصوريين الا وليد تلك الآلات الحديثة الاختراع .

بنى الصوريون مذهبهم على أن الادب يجب أن يكون صورا متلاحقة مضغوطة ، وقد بالغوا في ضغط صورهم ، وتفننوا حتى جعلوا الكلمة الواحدة صورا مختصرة لا صورة واحدة ، وما زالوا يمعنون في مبالغتهم حتى صاروا يسحقون القصيدة الواحدة الضخمة في بيتين من الشعر لا ثالث لهما ولكن المذهب الذى دعوا اليه لم يربطه بالماضي أى رباط ، ولما شعروا بأن المبدأ الذى ينبت عن الماضي يضل سواء السبيل اذ لا يجد أساسا يرتكز عليه بحثوا عن دعامة يؤسسون عليها مذهبهم فيصلونه بالحياة ، فاهتدوا الى مدرسة رأوها أقرب المدارس الى مذهبهم وهى مدرسة الرمزية الفرنسية ، تلك المدرسه التى أسسها أديب لا علاقة له بفرنسا ، هو « ادجار الن بو » .

وصلوا سلكهم بسلك الرمزية ، ولكن شتان بين المذهبين ، واذا كان للصوريين فضل فهو لا يمت الى مذهبهم بصلة ، ولكنه ينحصر في أنهم تسببوا عن غير قصد في نقل مذهب الرمزية في الادب الى انجلترا ، ذلك المذهب الذى لا يخامرنا شك في أنه سيصبح أخطر المذاهب الادبية شأنا في المستقبل ، وسيضرب المجددون المفننون فى كل اتجاه ، ولكنهم لا بد راجعون اليه آخر المطاف مرغمين .

ولزيادة الموضوع شرحا أقول : ان مذهب الصوريين كان يعتمد على الأسس الآتية :

١ ـ التصوير الشعرى .

٢ ـ التركيز .

٣ ـ الضغط .

٤ ـ استعمال اللفظ الموحى .

ولكن أصحاب هذا المذهب حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة ظلوا يدورون حولها حتى استنفدوا قواهم فهلكوا فيها . على أن اليوت وسبندر ولويس وهم من شعراء العصر الحاضر ، ظلوا يتبعون طريقة التصوير والتركيز والضغط حتى بعد اندثار مدرسة الصوريين ، ولكنهم نحوا في ذلك بطبيعة الحال نحوا جديدا . وكان مما يدعو اليه المذهب الصورى اختيار اللفظ الموحى للتعبير عن المعنى ويرجع ذلك الى اعتقاد أصحاب ذلك المذهب ان المعنى المحدد للفظة ما يفقدها قوتها ، وأن جمال الموسيقى الشعرية لا يكون الا في غموض المعنى الصوتى للالحان ، فكلما ألقت اللفظة ظلا من الغموض اكتسبت قوة وجمالا ، وذلك لانها تفتح لقارئها آفاقا مبهمة تتسع للتأمل !...

... ولا يغرب عن البال ان شعر شكسبير كان غنيا بالصور حتى ان الصوريين عجزوا عن اللحاق به في هذا المضمار ، ولكن غزارة مادته حالت

بينه وبين الضغط والتركيز . وقد جاء شعر شلى كذلك على غرار ما دعا اليه المذهب الصورى . وكانت صوره من الكثرة بحيث تبهر البصر كالمرايا المتكسرة فى طريق تنعكس عليه أشعة الشمس . ولكن المدرسة الشعرية الجديدة فى انجلترا وجهت اللفظ توجيها سيكولوجيا جديدا : وتفسير ذلك أن الكلمة عند شكسبير وشلى والصوريين كانت كلمة واضحة تؤدى معناها مباشرة ... وتعنى ما تقول أو بعبارة أخرى كانت تصدر عن العقل الواعى لتخلق صورة محددة ، أو عدة صور .

أما المدرسة الشعرية المشار اليها فقد اتجهت الى تحـديد التجربة الشعرية ، وتحديد العلاقة بين العقل الواعى والعقل الباطن ، وتحديد مهمة العقل الباطن فى الادب ، واستغلال امكانيات العقل الباطن ؛ وبناء الشعر الحديث على الطريقة المسماة التداعى الحر Free Associations وتقوم هذه الطريقة الاخـيرة على الاسترسال وراء الكلمات ، أى أن كل كلمة تجر الكلمة التى تليها حتى تنتظم القصيدة بأكملها ، فاذا أعمـل فيها القارىء فكره ، وجد نفسه يموج فى عالم لجب من المعانى والصـــور . وقد قال الشاعر الفرنسى « مالارميه » بمثل هذا حين زعم أن قيمة اللفظ تنحصر فى خلق جو غامض يستتر وراءه وضوحا عليك أنت أن تستجليه بخيالك! .

والذى يعاب على هذا المذهب انه ممعن فى الذاتية ، أى ان الشاعر يعبر عن قرارة ذاته ، ويتصيد أوهامه الغامضة محتفظا بمفاتيح أسرارها ويدع الناس يتخبطون وراء معانيه كيف شاءوا ، ويختار كل منهم التفسير الذى يلائمه .

واذا طوينا كشحا عن الانحرافات الادبية الناشئة عن الويلات التى عانتها الانسانية بعد كل من الحربين الكبيرتين الاخيرتين ، فاننا نستطيع أن نكرر ما قلناه من ان الطابع العلمى هو طابع الشعر الجديد الذى عمد الى مجاراة الحياة والاحياء ، فأما مجاراته للحياة ففى طريق تأثره بهـا ، وتأثيره فيها ، وامتلائه بالحيوية الدافقة .وأما مجاراته للاحياء ففى طريق مشاركتهم فى مشاعرهم ، والتفاهم معهم ، ومخاطبتهم بلغتهم ؛ فان ازور عنهم ونبذهم ، ازوروا عنه ونبذوه .

نعم يحرص الشعر فى هذا العصر على أن يكون واضحا مفهوما حتى لذوى الثقافة الضحلة .

وقد كان الشاعر فيما مضى يصف الذهول مثلا فيقول : انه اغراق فى الشرود أو يقول شيئا شبيها بذلك ولكن الشاعر المعاصر سبندر يقول عنه : « كنت ذاهلا كمريض مبنج على مائدة العمليات الجراحية » .

ثم ان الشاعر الحديث لا يتورع عن استعمال الكلمات المتداولة التى كان الشعر يترفع فيما مضى عنها حريصا على تخير الالفـــاظ الشريفـــة الانيقة . ويرجع سبب هذا التغير الى أن اللفظ لا يتخير الآن لذاته أو لحسن السبك وفخامة الديباجة ولكنه يتخير لأداء المعنى على أدق وجه وأوضحه مع مراعاة تناسقه مع المعنى والموسيقى الشعرية ، وهذا يتمشى مع نزول الشعر الى الواقعية فى بساطتها وصدقها .

رسالة الاخلاق

يتحتم علينا قبل الدخول فى الموضوع أن نحدد ما نعنيـه بكلمة فلسفة ، ثم ما نعنيه بكلمة أخلاق . أما الفلسفة فهى ذلك الشىء الذى يضع الخطوط العريضة للتجارب الانسانية . ومنذ القدم عرف ان هناك طبقة فوق الفلسفة هى طبقة الدين ، وطبقة تحتها هى طبقة العلم . والدين كما هو معروف قائم على الحقائق التى لا تناقش ، أما الفلسفة فشرح الحقائق البعيدة للحقائق الظاهرة ، أما العلم فتطبيق‌عملى لهذه الشروح والتعليقات ومن يستعرض مراحل الفكر على الاجيال يتضح له أن الدين يتكىء على الفلسفة ، والفلسفة تتكىء على العلم . وأن الفلسفة اذا عجزت تطلعت الى الدين وأن العلم اذا وصل الى أزمة تطلع الى الفلسفة طالبا منها المعونة .

أما الاخلاق فكلمة غامضة ، تناولها الدين فجعل لها معنى ، وتناولها العلم فجعل لها معنى ؛ وتناولتها الفلسفة فجعلت لها معنى .

أما من ناحية الدين فالاخلاق الطيبة هى التى تتفق مع تعاليم الدين بغير مراعاة للظروف والبيئات‌والاجيال والتغيرات‌الاقتصادية أو العمرانية. ولا شك أن الديانات تضع المناهج العامة التى بمقتضاها يتحقق صـلاح العالم ، ولكن العقائد التى لا تناقش صار موقفها حرجا فى العالم المتطور الذى أصبح كل من فيه صاحب رأى ، وكل صاحب رأى مغرما بالجـدل والمناقشة . والواقع أن أكثرنا يؤمن بتعاليم الدين ، وقل من يمارسـها اليوم ممارسة مخلصة .

وما أصدق قول برجسون الفيلسوف : ان التقاليـد والعادات هى الاخلاق ، ولما كانت الديانات تنهى عن الخروج على المألوف فالتقاليـد والعادات تتفق مع النصوص الدينية .

وفى القانون الهندى القديم (المانو) جاء ما يأتى : « ان التقاليـد المتوارثة جيلا عن جيل خلال الاجيال انما هى عماد الاخلاق‌الفاضلة » ومهما يكن فى هذا الامر من الصواب من حيث ان التقاليد هى خلاصة التجـارب الماضية أو هى فى عبارة أخرى « غربلة الماضى » فهى لا تصـلح لان تكون قانونا عاما .

اذن فكلمة « أخلاق » أو رجل عنده أخلاق تعنى فى العرف السـائد « ذلك الذى لا ينحرف عن الاصول » ونحن فى حياتنا العامة نعتبر كل من يخرج على العرف سيىء الاخلاق . أما ما هذه‌الاصول بالضبط ، أو ما هذا العرف فهو هذا الذى ترك الافهام حائرة .

فسيقول لك رجل الدين : « عليك بالقرآن والاحاديث »

وسيقول لك رجل الفلسفة : « عليك بأرسطو وأفلاطون » .

وسيقول لك عالم النفس : « هو فى التوازن النفسى » .

وسيقول لك عالم الاجتماع : « هو فيما يوائم بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع » .

ولقد فرق الفيلسوف دورانت بين التقاليد والاخلاق ، فقال : ان التقاليد عادات نطبقها ولا نعظ بها ، والاخلاق عادات نعظ بها ولا نطبقها .

أما موقف الدين من هذه المسألة ـ أعنى مسألة المعتقدات الثابتة فى العالم المضطرب المتغير ، فلا يمكن أن يوصف أو يحدد بأدق مما حدده بوذا لتلاميذه منذ القدم ، فقد ذهب اليه سكان كالاما وقالوا له : « ان بعض البراهمة والنساك يجيئون الينا بمختلف المذاهب حتى عدنا لا نعرف ماذا نصدق » .
فأجاب : « الشك مفيد لكم والاعتقاد الاعمى ضار بكم ، لا تحكموا بالتقاليد ، ولا تطيعوا الكتب المقدسة بدون فهم ، ولا تتقيدوا بحجج المنطق ، ولا تؤمنوا ايمانا أعمى بحواسكم : ولا بالافكار القديمة ، ولا حب المظاهر ، ولا تجروا وراء معلم أو ناسك . ولكن ليكن حكمكم كما ترون أنتم ، فاذا تبين لكم أن هذا الشىء ضار أو غير لائق ، أو انه يحدث النكد والشقاء ؛ لنا ولغيرنا فتجنبوه ، واذا كان الشىء لائقا أو صالحا ، وانه يسعدنا ويسعد غيرنا فاتبعوه » .

ذلك هو القانون ، وهذه هى الاخلاق .

غير ان هناك ثلاثة أشياء لا بد من ذكرها ما دمنا نتحدث عن علاقة الدين بالاخلاق :

أولا ـ ان الديانات مختلفة التعاليم .

ثانيا ـ ان أرباب المذهب الواحد أو الدين الواحد قد يختلفون على النقطة الواحدة ، فيتشعبون فرقا ويتبعثرون شيعا .

ثالثا ـ انه فى ظلال دين واحد لا يتغير ، تجىء نظم وتتلاشى نظم ، وتظهر مذاهب وتختفى ، وتتجدد عادات ؛ وتتوارى تقاليد ، ففى ظلال المسيحية كانت المبارزة مشروعة ، وكان الرقيق محللا .

ولما كنا فى عصر العلم فقد جاء العلماء وقالوا لنا : لماذا تتعبون أنفسكم ان الطبيعة هى التى تقرر المصلحة بغير انتظار لحكمكم .
فلما جاء داروين وقال ببقاء الاصلح ظن انه حل مشكلة الدنيا بمعنى أن ما تصنعه الطبيعة هو الطيب الوحيد . ولكنه اتضح (أولا) ان الاصلح فى عرف داروين ليس هو الاصلح بالمعنى المجرد لهذه الكلمة ، بل «الاصلح للبقاء» ثم اتضح انه يعنى بالاصلح الاقوى . فهو قد سن شريعة القتال لتصفية الموقف وتحديد الاصلح . وهو فى ناحية أخرى بنى هذه الصلاحية على التعاون كمثل أعلى للحصول على ما هو أصلح .

ولكن مذهب داروين انهار فلسفيا حين اتضح أن التناقض فى ناحية

يقابله الكفاح فى آخرى فكأننا لم نصل الى شيء . وبعبارة أخرى انالتعاون المحمود ماهو الا كفاح ضد ، أو هو ضرب من التكتل ضد العدوان .

أما علماء الاجتماع فقد بحثوا عن هذا « الطيب » فيما أسموه حقوق الانسان أعني ان هذا الطيب هو حق الانسان الاجتماعي . وان على القوانين والعادات أن تتفق مع هذا الحق الاجتماعي . وقد كان قرار استقلال أمريكا فى سنة ١٧٧٦ مبنيا على الحق « فى الحياة والحرية والسعادة » وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك التاريخ قررت الجمعية الفرنسية الوطنيــــة حق الانسان فى « الحرية والملكية والامن ومقاومة الظلم » :

فها نحن أولاء نرى انأكثر هذه المقررات سرعان ما بات سرابا خادعا . ففيما يختص بالحرية ، ظلت تجارة العبيد بعد قرار اســـتقلال أمريكا . وفيما يختص بمقاومة الظلم كانت الحرية ترفرف على ربوع فرنسا والظلم يجرى دهاقا فى مستعمراتها .

وفيما يختص بالملكية ، كان النــداء بالديمقراطية ثم بالاشتراكية نداء صريحا ضد الملكية . .

واذن فالميدان السياسى الاجتماعى لم يحل مشاكلنا ، ولم نصل عن طريقه الى خير عام مقرر يصلح لان يكون لجميع الازمان . اذن فلا مناص أن نعود ادراجنا للفلسفة فقد تعودت الفلسفة أن تكون دائمـــا أصدق معين وسند . حينما تعجزنا السبل الاخرى .

فاذا لجأنا الى الفلسفة وجدنا اننا لا بد أن نبدأ بأسياد الفلسفة ، لنرى هل من الممكن أن تنفعنا آراؤهم القديمة ؟

لقد كان أفلاطون وأرسطو ـ ومن قبلهما سقراط ـ يعتقدون إنه لا حاجة بنا لان ندل أى انسان على الطيب لان ذلك مطبــوع فى النفس الانسانية .

ولقد قال سانت اوجستين : « ان الخلق الطيب كالوقت . أعرف ما هو بدون أن تسألنى عنه » ومعنى ذلك أن فى النفس نوعا من البصيرة تولدت بها ولا نكتسبها ويمكننا أن نسمى هذه البصيرة « الضــمير الفردى » ، ولكن هذا الرأى لا يمكن قبوله اليوم ، لان هذه البصيرة لا يمكن أن توهب للناس جميعا على حد سواء . ثم ان هذا الضمير « الفردى » قد يتبدل بتبديل الاحوال والبيئات والظروف . فمن يدرى ربما كان نابليون يعمل تبعا لوحى ضميره « الفردى » ؟

فلما جاء عصر غير نابليون انقســـم الناس فريقين : فريقـــا اعتبره عبقريا ومصلحا ، وفريقا اعتبره سفاحا ومجرما .

ولما كان علم النفس هو الابن البكر للفلسفة فقد مالت عليه تسأله رأيه ، فجاء برأيين :

الراى الاول أن الاخـلاق « غرائز اجتماعية » ، يعنى بذلك أن الغرائز التى نولد بها انما جعلت لنحافظ بها على انفسنا أولا ، وبعد ذلك تجعلنا صالحين للاجتـــماع ، واذن فهناك غرائز تنحى ، وأخرى

يفسح لها المجال للظهور ، حتى تصبح « عادات اجتماعية » هى خلاصة « الغربلة » ونهاية التجارب ، لاننا نلاحظ انها ليست أكثر من طلاء تمسحه ظروف طارئة كالحرب والمرض والحب والغضب .. ويتضح من ذلك أن هذه العادات الاجتماعية ليست غير قشرة ، لا يمكن الاعتماد عليها مطلقا .

أما الرأى الآخر فهو رأى ينج . وهو أن الاخلاق اما أخلاق استنباطية أو خارجية وان الانسان البدائى استبطانى ، والطفل استبطانى ، أى أنه انطوائى ، ينتزع من الصور التى فى داخل نفسه ليعكس على الخارج ، بعكس الخارجى الذى يعتمد على الحواس لينتزع صورا خارجية يعكسها الى الداخل ، ويقول أتباع هذا الرأى : اننا كلما تحضرنا ، صارت اخلاقنا خارجية . ولكن لم يقولوا لنا أى النوعين أصلح أو أجود ؟ ..

اذن فنحن نقف موقفا عجيبا ، عندما نريد أن نحدد ما هو طيب وما هو شر ، ونستطيع أن نحدد على الاقل أنه ليس هناك طيب فى ذاته ولا شر فى ذاته ، وانما يحكم على عمل ما بالنتيجة . ولكنك تتساءل : لمن النتيجة ؟ وكيف ؟ فأجيبك : النتيجة المباشرة وغير المباشرة ، قريبة وبعيدة ، للانسان ولغيره ..

واى نتيجة ؟ أجيبك فى كلمة واحدة : المنفعة ، فتسألنى وما صفة المنفعة ؟ أجيبك « الإسعاد » . ولقد تناول أتباع بنتام الانجليزى هذا المبدأ ، مبدأ المنفعة حتى تسموا بالمنفعيين ، وأخذوا يشرحون معنى « الاسعاد » فتعثروا ، فهم عرفوا هذا الاسعاد بأنه « السرور وتجنب الالم » فخلطوا بين السرور الذى هو لذة حية وبين السعادة التى هى فكرة ، ومن ثم فاتتهم ألوان من السعادة لم تخطر لهم على بال ، كالسعادة التى تنطوى تحت لواء الفنون ، وفى ظل آيات الجمال . وزيادة على ذلك فقد أخذوا يحسبون هذا الاسعاد بالارقام الرياضية ، فزاد ذلك فى اسباب فشلهم .

على أنهم — وان فشلوا فى تفسير معنى الاسعاد — تركوا للاجيال شرحه وتطبيقه .

ونحن اذا نظرنا للانسانية من ناحية عامة ، من حيث وسيلة « اسعاد البشر » وجدنا أن هذه الغاية لا تتساوى فى جميع المراحل التى اجتازتها البشرية ، فان البشرية مرت فى ثلاث مراحل :

المرحلة البدائية ، ومن الواضح أن اسعاد الهمجى أو البدائى يتلخص فى اشباع غرائزه .

والمرحلة الزراعية وهى مرحلة لبثت فيها البشرية خمسة عشر قرنا من الزمان ، وفيها وجد التشريع الاخلاقى ، ففى هذه المرحلة ، تكونت الاسرة ونضج الانسان بسرعة . وتزوج زواجا مبكرا ، وقدست الامومة ، والعفة والحياء ، وأدرك الانسان شيئا من الاستقرار بفضل التعاون بين أفراد الاسرة الواحدة ، أو الاسر المتجاورة .

وكل ما يعين على تحقيق هذه الغايات في الوسط الزراعي يؤدي الى « اسعاد » أهل هذا الوسط اسعادا فرديا وجماعيا .

اما الوسط الصناعي الذي صار طابع العصر في الغرب ، والذي تتحول اليه مصر تحولا لا شك فيه فانه وسط العمل والمصنع ، وسط الكفاح الفردي ، وسط ينضج فيه الفرد متأخرا ، ويتزوج متأخرا ، وتقل قيمة الاسرة ، وينظر للعفة والحياء والامومة بنظرة مختلفة . وتكثر فيه القلقلة والاضطراب والكبت ، ويقل الامن والاستقرار ، فلا شك أن « الاسعاد » فيه مختلف جدا عن كل ما سبق ..

اذن فالخلق الطيب يقدر بنتيجته . ومعنى ذلك انه لا يوجد خلق طيب فاقد النتيجة ، أو بعبارة أخرى له صفة سلبية . فليس يكفي أن تكون لك النية فقط . بل يجب أن تتحرك وتعمل . فصفة العمل الطيب الاساسية انه ايجابي نافع ومسعد .

ما الطريقة اذن لخلق شخص له هذه الميزة المثلثة ؟ ان الفلسفة توقفنا عند هذا الحد ثم تسلمنا لابنها الاكبر وهو علم النفس . الذي يتحدث عن أمرين : دوافع داخلية ووسط .. وان جميع المشاكل ـ لا مشكلة الاخلاق وحدها ـ قائمة على التحيز لامر من هذين .

واذا قسمت الفلاسفة المحدثين ، وعلماء النفس المشهورين قسمتهم مدرستين كبيرتين من حيث التحيز لهذا الرأى أو ذاك .

أما أرسطو فقد قال : « ان هناك دافعا داخليا يشكل كل شيء » ومن هذا الرأى برجسون ووليم جيمس « في مذهب الذرائع » .

وينضاف لذلك أفلاطون وكانت ولينتتر وشوبنهاور ، ومن علماء التطور لامارك ، ومن الادباء جيته وكاريسال ونيتشة .

وتلخص آراؤهم في أنها تخضع الاشياء للفكرة والمادة للعقل ، على حين أن المذهب الاخر ، المبدأ الذي يدين بأن الوسط هو كل شيء ، يحول الفكر الى « شيء » و mind « العقل » الى مادة ، ومن أقطاب هذا المذهب والمبشرين به : ديموقريطس ، وابيقور ، وهوبز ، وسبينوزا ، وداروين أخيرا . ثم سبنسر ، ثم واتسن صاحب المذهب السلوكي .

ولا بد أن اذكر انه لا يزال يذكر في كتب علم النفس الحديثة ، الحديثة جدا ، مذهب تقسيم الاخلاق على حسب المزاج : حزين ، وغضبي ، ودموي ، وبلغمي ...

ولا نزال نذكر التقسيم الى : فكري ، وعاطفي ، وارادي . ولكن هذا أصبح قديما جدا ...

ولكن المذهب الذي يأخذ به المحدثون اليوم ، يميل الى الرأى الاول ، غير انه يعترف بوجود اتجاهات ورغبات ودوافع موروثة ، وفي الوقت نفسه يعترف بأهمية الوسط ، يعترف بها اعترافا جديا . ولكنه يبدأ من الناحية الاولى في شرح مسألة الاخلاق . وعلى ذلك يبدأ بمسألة الدوافع ويقسم كل دافع ثلاثة أقسام ينقسم كل منها قسمين :

سالب ، وموجب . أما الاقسام الثلاثة فهى متداخلة ولا يستطاع فصل الواحد منها عن الآخر ! وهى الغريزة ، والعادة ، والشعور . ونحن نولد بخمس غرائز أساسية يمكن ضربها فى اثنين ما دمنا نجد لكل غريزة وجهين : الغرائز هى البحث عن الطعام ، والقتال ، والعمل ، والاجتماع ، والتناسل .

فالبحث عن الطعام سلبيته التقشف ، والقتال سلبيته الهرب والعمل سلبيته الخمول والنوم ، والتناسل سلبيته الامتناع عن الأنثى .

والعادة المصاحبة للجرى وراء الطعام ، أما الصيد والقنص فهما « ايجابيان » واما انتظار الطعام وغسل اليدين « فهما سلبيان » والشعور المصاحب هو الجوع ، أو ضده وهو العزوف عن الطعام .

ويمكن الاطلاع على التفصيل لهذا فى كتب علم النفس ..

ولكننى أريد أن أخلص من هذا الى أن هــذه الخطوط الرئيسـية للخلق الانسانى ، وعلى الجنس والعنصر والوراثة أن تحدد بعض هذه الخطوط ، ولكن على الوسط ومؤثراته وحده تحديد الباقى . فالشـعر الشائع مثلا مشهور ..

واذا ماخلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

فان الجبـان يتنمر حين يخلو الميدان ، فاذا امتلأ الميدان استحال الى شىء آخر ، والجرح الصغير قد يكون حافزا على الشجاعة ، والإصابة البالغة قد تسبب الجبن ، وبعبارة أخرى هناك وسـط يثير ايجابيتنا ، وآخـر يثير سـلبيتنا ، وبعبـارة أوضح الاتجاهات يحددها الدافع الداخلى ، والوسط يحدد التعبير وكيفيته .

ومن ثم يتضح انه لبناء الاخلاق ، بناء سيكولوجيا ، يجب علينا أن نتكىء على شيئين : حسن الاختيار فى الزواج ، والآخر العناية بالوسط الذى ينشأ فيه طالب الاخلاق ...

رسالة الادب الروسى

لماذا نتحدث عن الادب الروسى ؟ هل له اهمية تقتضينا هذا العناء والتقصى ؟ ... أجل له اهمية بالغة .

فان الادب الروسى — فى القرن التاسع عشر — ثورة على الاتجاهات الأدبية كما عرفها التاريخ الأدبى . فاننا جميعا نعرف أن الادب اما يجرى فى ظلال العاطفة أو فى ظلال العقل ، أو فى مزيج منهما معا .

ولكن الانفصال بين العاطفة والعقل ظل عاملا مهما فى أسباب الجمود الادبى . وقل فى الشعراء أو القصاصين من أمكنه ان يلائم بينهما . فهما فريقان : اما فريق مفرق فى الخيال ، واما فريق مفرق فى الواقعية . وقد كان المزج بين المذاهب المختلفة ديدن المفكرين والنقاد فى العصور الحديثة .

ولكن الروس أفلحوا فى ايجاد هذا الانسجام وزادوا على المستوى الوجدانى والفكرى مستويين آخرين : مستوى الروح ، ومستوى الاعصاب ، ويمكن أن نقول : ان تولستوى أضاف مستوى ثالثا هو مستوى الحياة .. أى أن هناك طابعا للوجدان ، وطابعا للروح وطابعا للأعصاب ، وطابعا للحياة ، وهذه كلها عليها أن تلتئم لتحدث أدبا جديدا ..

على أننى أقول : ان المستوى الروحى وهو الطابع العام للادب الروسى ، أوجد الابتكار الجديد لذلك الادب ، وان اضافة الاعصاب كانت من شأن ديستوفيسكى والحياة من نصيب تولستوى ..

وقد يقال : ان هذا العالم ، عالم الروح ، قد سبق أن تناوله الكتاب من قبل ، فأجيب أنه لم يسبق أن تغلغل احد تغلغلا مباشرا جريئا صريحا كما صنع كتاب الروس . ولذلك لا يخاطب الادب الروسى أى انسان ، ولا أى روح ، بل يخاطب الشروح البسيطة الصادقة الميالة للخير .. هى هذه التى تتجاوب معه والتى تفهمه والتى تحبه :

والواقع ان الادب الروسى يظل غريبا على الذى اعتاد قراءة الادب الغربى الخاضع للعقل والترتيب والمنطق والشكل ..

والصواب أن على الانسان ان يقرأ كثيرا قبل أن يتمكن من فهم هذا الوعى الجديد ..

هذا هى الاهمية الاولى : الأدب الروسى أدب يبحث فى أسرار الروح وتفاعلها وآلامها وحسراتها ..

والاهمية الثانية هى أن الادب الروسى يبحث مسألة السلوك الانسانى

بحثا مباشرا صريحا جريئا ، وكما تعود الكتاب أن يفصلوا بين العاطفة والعقل ، فكذلك الأخلاقيون تعودوا أن يفصلوا بين الطبيعة العقلية ، والطبيعة الخلقية ، بمعنى أن الانسان يمكن أن يكون سليم الاخلاق ، وهو فى الوقت نفسه ناقص العقل . أو العكس : فالروس يقولون : ان هناك وحدة بين قانون العقل وقانون الخلق، وان البحث على أنهما منفصلان هو أصل الخطأ ومصدر الضلال . وقد يقال : أن هذا المذهب اغريقى قديم ، نادى به يوربيدس ، ودعا اليه فى مسرحياته ، وهذا صحيح ، ولكن تناوله على أيدى الاغريق كان تناولا هينا لينا ، أما تناول الروس له فكان تناولا حارا عاصفا عنيفا . والسبب فى ذلك ينطبق على الاغريق كما ينطبق على أهل الغرب اليوم . فان الاغريق مارسوا السياسة ، وتطبعوا بالطابع العملى شأنهم شأن أهل الغرب ، ولذلك فان قواهم الروحية استنفدت فى مزوالة الناحية السياسية أو العملية . أما الروس فان أرواحهم احتفظت بكامل قواها فى تناول المسألة التى تختص بالسلوك الانسانى . وتناولتها بايمان وحماس .

وعيب الناحية العملية انها تجعلنا نقبل عدم الكمال ، كحالة واقعة ، ونسلم بالفوضى الحاضرة على انها حقيقة مؤثرة ، واننا «عمليا» يجب أن نرضى بهذا ..

ولكن الروسى لا يقبل هذا الرأى ، فهو يعتقد أن النقص علامة على الكمال . زيادة على أن النفس الروسية لا تدين « بالانفصال » ، فعندها أن السياسة والروحانيات ملتئمتان لا تتجزءان . وعيب الغرب وكتابه محاولة التفرقة بين السياسة والروح ، أو السياسة والدين على فكرة أن السياسة شيء غير مشترك ،والدين شيء فردى خاص .

ولكن الروس يرون أن الدين لا يمكن أن يكون خاصا بمعنى كلمة الخصوص ، فانه يمس الفرد وغيره بلا جدال .

ولذلك لا يعترف الروسى فى قرارة نفسه بخرفية القانون ، أو بالناحية العملية للقانون ، لأن القانون يحاسب على العمل . ويفصل العمل عن الاعتقاد ، على حين أن العقلية الروسية اللاانفصالية لا تفصل العمل عن الاعتقاد .

واذن فمسألة السلوك الانسانى لا تعنى مطلقا قصة الفعل عمليا ، بل قصة الرأى والاعتقاد كذلك ،بمعنى أن المسلك السياسى أو العملى يستند دائما الى خلفية روحية .

واذن فالحكم على العمل لا يعطينا قضاء محكما . فان الرأى والمعتقد جزء من الشخصية ، والشخصية شيء نهائى .وقد يكون جبريا خارجا عن خيارنا . فهذا الاتحاد يجعل الحكم على ناحية واحدة حكما غير متين .

ولقد يقال : ان هذه هى النظرية الموضوعية العلمية غير المتحيزة ، فنجيب : هذا صحيح ، ولكن حكم العلم قاس جامد بارد ، ولكن حكم العقلية الروسية الادبية دافىء حنون ، انسانى ..

الأهمية الثالثة للأدب الروسى نتيجة لما سبق : ومعنى ذلك انك ما دمت لا تستـــــطيع ان تحكم حكما منطقيا على العدل المطلق فيجب عليك الا تدين أو تعاقب .

الانسان منا يجب الا يدين أو يعاقب ، ومن هنا التسامح والغفران والتحمل ، هذه الصفات الكبيرة الواضحة فى الأدب الروسى .

لا نستطيع أن نحكم ، ولا نستطيع أن ندين .. اذن من الذى يدين ويحكم ويثيب ويعاقب ؟ الذى يدرك الحقيقة .. أين هو ؟ موجود فعلينا بالبحث .. اننا تحت أيد جبرية مخفية تحت استار كثيفة .

هلم نكشف هـــذه الاستار أو بعضـــها . ان المسيحيين يقولون : ان الله هو الحق ، والمسيح هو الخلق .. وهذا قول جميل وقد كان جميع الكتاب الروس مسيحيين يدينون بهذا القول .

ولكن بصورة تأملية فلسفية جعلتهم يعترفون أن اكبارهم للمسيح ـ أى للخلق ـ « صير المسيحية عندهم أضيق من أن تتسع لهم »

ولـــكن ما دام الخير والشر سران فى ضـــمير المطلق ، فقـــد تميز الادب الروسى بهذا الظمأ للمطلق ، والهيـــام بالمجهول ، والانطلاق وراءه انطلاقا عنيفا . وهذا الانطلاق الحر قد صير النفس الروسية كعالم متموج فيه احتمالات كثيرة ، وفيه مجال للغفران ، ومجال للتسامح ، وهذه المجالات الرحبة خلقت شيئا من الفوضى جعلت القلب الروسى حائرا يبحث عن مستقر فلا يستطيع . فهو شارد ضائع يضرب فى فيافى الارض . ولقد قال دوستويفسكى : « ان الروسى الشريد محتاج لكل سعادات البشر لكى يعرف مستقرا أو هـــدوءا .. » ومعنى ذلك أن الذى يعلق سعادته بجميع سعادات البشر لن يجد السعادة .

هـــذا التسامح العجيب هو سر ســـــحر الادب الروسى ، فان ذلك الادب يأخذ الدنيا على أنها « كل » لا على انها اجزاء ينظر لكل منها نظرة خاصة .

وهو على ذلك لا يعترف بوجود فواصل ، وعندما تنمحى هذه الفواصل يقرب الخير من الشر ، والصـــعلوك من الملك والنجاح من الفشل ، فلا يعود الانسان حاقدا على الشر ، ولا حاسدا للملك ، ولا يائسا من الفشل ، ولا فرحا بالنجاح .

واذن فهناك « اعماق » يمكننا أن نصل اليها عندما نتســـــامح ونضحى ونتجاوز الحدود الفاصلة .. عندما نعترف بالانسجام التام بين البشر بعضهم وبعض ، وبين البشر والكائنات . على أن الانسان حين يبدأ بالاطمئنان لهذا السر نفسه ، التناسر ، ويأخذ فى الهدوء والتأسى يأخذ الشـــك فى الوقت نفسه بخنـــاقه ، فيقول : « أيمكن أن يكون ذلك صحيحا » ولقد كان تولستوى يخرج وحــــده فى الظلام ، بعـــد أن محا الفواصل التى بينه وبين الناس ، ليقابل العناصر مفردا .. وليسأل : « هل ممكن أن يكون ذلك ؟ ولماذا يارب شئته أن يكون كذلك » .

أما تشيكوف ، فيعترف أولا بالفوضى التامة فى أحوالنا الدنيوية ،

وقلة التناسق عندنا ، ثم يتغلغل من هذا الى الايمان بالتناسق الكلى .

أما دوستوفيسكى فأبطاله فريقان : فريق يقبل هذا التناسق الكلى وفريق يرفضه .. ويكون محور القصة المقابلة بين القبول والرفض ، وأثر كذلك فى النفسيتين المتناقضتين ، ويتضح ذلك على أتمه فى رواية الاخوة كارامازوف .. فمن هؤلاء اليوث المؤمن ، « خرج اليوث » وكانت زهور الخريف حول المنزل نائمة حتى الصباح ، وصمت الارض يذوب فى صمت النجوم ولغز الارض متصلا بلغز الكواكب .. »

وكان دوستوفيسكى يرى أن هـــذا التنـــاسق يمشى مشيا ملازما لحالات النفسية الانسانية وهو يرسمه رسما واضحا فى اقتران العواصف النفسية بالعواصف الكونية ، فهنا كما هناك الاشراق والظلمة ، والهدوء والعاصفة ..

على أن أهم مافى الادب الروسى هو انه بعد هذا البحث المضنى والاستقصاء المر ينتهى الامر الى نوع من التسليم والمهادنة ، أو ينتهى الى التكهن بأننا فى سبيل خلق عالم يرى هذا الانسجام حقيقة ثابتة لا زائلة أو حائلة ..

رسالة الفن الحديث

السريالية

الفن السريالى ، أو الفن فوق الواقعى ، أو الفن التجريدى ، وثبة من وثبات التطور الفكرى لا يمكن فهمها بغير الرجوع الى سلسلة طويلة من العلاقات التى نشأت وتطورت بين العواطف الانسانية والفكر .

وفى استعراض هذه السلسلة ، وتلك العلاقات ، تعترضنا عدة أسئلة :

السؤال الأول : كيف كان الانسان الاول يفكر ؟ ثم كيف كان يصور وينحت ؟

والسؤال الثانى : ما الذى دعا لتبديل هذه الطريقة ؟ وهل الأسلم أن نعود اليها وقد دعا كثيرون من الكتاب والفنانين والمحدثين للرجوع الى الغريزة فيما نكتب ونرسم ؟

والسؤال التالى : أيهما أسلم : أتباع الغريزة ، ام اتباع العقل ، أم اتباع طريق بينهما ؟

نبدأ بالسؤال الاول ، وهو كيف كان الانسان الاول يفكر ، وكيف كان يرسم ، ثم نصعد فى سلم التطور حتى نرى الخطى التى مشت بنا لأعلى هذا الدرج .

الفرق بين الانسان والحيوان ، هو ان الانسان قادر على التجريد ، Abstraction والحيوان لا يستطيع ، اعنى بذلك انه لا يستطيع الخروج (الا قليلا جدا) عن حدود الحواس والواقع ..

واعنى بالتجريد ، استعمال خصائص العقل بدون الاستعانة بالمرئيات ، أو بعبارة أخرى « التعقل » Intellect المبنى على مجرد ربط الأفكار منطقيا .

ومما تقرر فى هذا الباب أن الانسان لم يمكن ظهور خاصية التجريد فيه الا فى أثناء التطور البشرى لا فى أوله ..

ففى الانسان الاول اذن كان التجريد موجودا ، ولكنه قليل وضيق الحدود ولم يكن تجريدا عقليا بمعنى الكلمة ، بل كان تجريدا عاطفيا Emotion وكان لصيقا لاينفصل عن المرئيات .

وزيادة على ذلك فقد كان هذا التجريد العاطفى ، ضيق النطاق

جدا ، بحيث لم يكن يتعدى التقديس والخوف . وتوضيحا لذلك أنقل ما قاله ليفى برول بالحرف الواحد فى وصف العقلية الانسانية البدائية

« كانت هذه العقلية غير متميزة التفاصيل ، بحيث لم تستطع أن نتبين المرئيات لنفسها ، قائمة بذاتها ،بدون أن تغمرها الاحساسات التى استثارتها هذه المرئيات والواقع أن هذه الاحساسات والانفعالات جزء ــ من تلك العقلية من المرئيات والاشياء .. »

ويمكن ايجاز تطور الوعى فى أنه « محاولة » تطليق العنصر العاطفى ، من العنصر الواقعى ، وبعبارة أخرى محاولة « لتصفية » ما هو مختلط ، وايجاد « خانات » تتميز فيها المحتويات التى وراءها . ومن ثم اخترعت الحروف الابجدية « كرموز » لما وراءها . ويمكن أن ندعو هذه الرموز بدلالات Concepts ، لما خلفها من المحتويات Contents

ثم تتطور المسألة الى الدور الثانى وهو أن هذه «الرموز Symbols تؤخذ لذاتها ، وتستعمل فى التجريد العنصرى بقطع النظر عما يخالف المحتويات التى دلت عليها .

ويتضح هذا على أتمه فى فلسفة هيجل وكانت هى التى استعملت هذا التجريد استعمالا قلبت به وجه التاريخ . وسأبين كيف كان ذلك الآن .. فلننظر كيف مشى الفن فى هذا السبيل ؟

مشى عاطفيا ، ثم صار فى حاجة الى الرمز ، لكى يدل كل رمز على مجموعة خاصة من محتويات الجعبة المسماة العاطفة ، وبينما فى الادب تستعمل الكلمة تستعمل الخطوط والعلامات فى التصوير او النحت ، ثم بالتدريج تسقط أهمية هذه الرموز ، فى دلالتها على ما وراءها ، أى تنتهى المسألة بطلاقها من الحقيقة .. وبعد طلاقها من الحقيقة تفقد أهميتها وتأخذ فى الذبول .. غير أنها تأخذ فى الذبول فقط كرمز ولكن تصير لها أهمية حديثة : وهى أنها تصير نشاطا عقليا خاصا . ويكبر هذا النشاط حتى يحاول أن ينفصل عن الفن .. بحيث يأتى فيلسوف مثل هيجل ليقول لنا : ان العقل والفن منفصلان ، ويجب ألا يتصلا ... وزاد على ذلك أن الفن من خصائص المراهقة ،وهذا قول لا يقصد به الجور على الفن وانما الدفاع عن المنطق .. وقد يكون هيجل على بعض الحق من حيث ان الفن لا يمكن أن يكون مسألة رموز ، ولا مدلولات، وانما هو فى الواقع علاقة بين الحواس والمرئيات .

ويقول ليفى برول مرة اخرى : ان الاحساس الفنى فى الانسان الاول كان صادقا ، من حيث انه مزج بين المرئيات ، والمدركات ، ولكن ليس معنى هذا أن نعود الى الانسان الاول . فان هذا المزج حقيقة نحن فى حاجة اليه ولكن على طريقة أخرى ، فانه يجب أن يجرى على طريقة البدء بالمدركات والباسها ثوب الحقيقة ، أى يقبل التقسيم العلمى الفلسفى من ناحية وجود وأهمية هذه المدركات أو المدلولات أو الفكر ، ثم الرجوع الى الحقيقة التى هى سلم لها والباسها ثوبها .

وبعبارة أخرى بدل المدلول المجرد عليه أن يخلق المدلول الحى أو الظاهرة الحية وهذا هو العمل الفنى ...

هذا هو الفن الحديث فى آخر تطوره ، والسريالية طراز خاص يبين كيفية تطبيق هذا المبدأ . وبناء على هذا فهى تبدأ بأخذ هذه المدركات التى هى نواة الفكرة، لتطبيقها تطبيقا سيكولوجيا ، فأمام منطق هيجل كان يجب أن نعترف بأن هناك قوى معادلة للوعى ، وموازنة له ولا تقل أهميـــــة عن قوته ، كل شيء له مناقضه الذى علينا أن نجلوه معه لكى يزيد الوعى قوة باقترانه باللاوعى ، فأمام منطق هيجل لابد أن نذكر أحلام لوتريامون وبيكاسو . وأمام منطق توماس أكويناس لابد أن نذكر البناء التخيلى للكنيسة القورطية . فالمسألة اذن مسألة أطلاق قوى معوضة مكبوته عليها أن تظهر فى العمل الفنى بشكل شـــــاعرى يضاف الى المنطق والعقل . فالعمل الفنى الحديث يجب اذن أن يخـاطب الحواس ، وفى الوقت نفسه يستند على قاعدة عاطفية انفعالية أو بعبارة اخرى أن يجلو الفن الفكرة ،ومعادلها ، أو مناقضها ويمكن أن نوضح اكثر فنقول : ان الفن السريالى ، أو التجريدى ، قائم على ايجـــاد التناقض بين الفكرة والفن ، وفى حالة ايجاد هذا التناقض ، يحدث المزج المطلوب بدون الخلال بوحدة الموضوع الاصيل وهو المدلول أو ال Concept

ولنوضح هذا فى الفن السريالى كما نعرفه اليوم ، فنبدأ بكلمة « الفراغ » Space : فالفن السريالى يبدأ بهذه الكلمة أو « المدركة » لينجلوها فى ثوب يجعل لها حياة ونبضا ... وقد تناول المصور السيريالى « دالى » الذى سأحدثكم عنه قريبا هذه « الفكرة » فهو فى بضعة خطوط وبضعة ألوان ، يجعلنا نحس ، ثم نعى « الفراغ » .

وعلى كل حال ما دمنا بدأنا بالمدركات واردنا ترجمتها ، فقد دخلنا فى منطقة العقل الباطنى ، وكلما تغلغلنا فى فهمـــه واستغلال ذلك الفهم أمكن أن يكون فننا ديناميكيا ، بخلاف الفنان القـــديمة التى كانت شـــيئا ساكنا Static تحوم حوله ظلال حماسية .

ويتلخص الفن السريالى اذن فى انه فن يبدأ من «الداخل للخارج» أى يتهم بالفكرة قبل الموضوع واقصد بالموضوع The object وقد ظن أكثر الناس ان الفن السريالى فن تجريدى محض ، أى أنه مجـرد تأملات باطنية تسجل على اللوحة أو بالكتابة بقطع النظر عن المرئى أو الملموس، ولكن لابريتون وجاكسوين وأقطاب هذه المدرسة ، قالوا مدافعين عن مذهبهم انه ليس هناك فن غير مبنى على المرئى الحقيقى ، ولـــكن السرياليين يبدءون بالحقيقة كما هى ، ثم يتنسونها ، أو بالاصح يرجعون الى حقيقة الحقائق ،الا وهى صورة الحقيقة مرتسمة فى العقل الباطن . فكما أنه فى الطبيعة لا يمكن فصل الإشياء عن ملابساتها ، اذ أنه ليس هناك صحو بلا ضباب ، ولا ليل بلا نهار ، ولا ضوء بلا ظلال ، كذلك لا يمكن فى الحياة ذكر حقيقة أو تصـــويرها بغير ما يختلط بها من انفعالات ، وذكريات ، وانطبــاعات ماضية وحاضرة ، وأخـرى ثانية أو عابرة ، فالحقيقة اذن هى هذه ، حقيقة العقل الباطن ، فليس الواعى هو كل شيء ، بل يجب أن تكون صورة الحقيقة ممثلة للواقع وفوق الواقع أو وراء الواقع معا .

ولو خيرت فى التسمية لاخترت لها كلمتى « ما وراء الواقع » ،

سواء بسواء ككلمتى وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا سواء بسواء ومصداقا لهذا أذكر أن مبدأ السريالية الحقيقية كان عند المصور بوش فى القرون الوسطى ، وقد كان فنا سيرياليا ميتافيزيقيا ، ولوحاته مشهورة ، وقد كانت وحيا لكثيرين من المعاصرين وبخاصة دالى الذى حدثتكم عنه ولكن فن دالى — على تأثره بفن بوش — انتقــل من الحقل الدينى الى الحقل اللاواعى . بل أكثر من ذلك اعتمد على رموز العقل الباطن وأحلامه . وقد اطلعت على احدى لوحاته الشهيرة ، وكان يسرنى أن أحضر صورة لهــا لتستقر فى أذهانكم لوحة لدالى بل السيريالية الاصيلة ، ولكنى أكتفى بأن أخبركم بمحتويات الصورة . دالى يرسم حذاء سيدة ، وبالقرب منها كوب من اللبن ، ويرسم خنزيرا بالقرب منه حشرة لها أقدام آدمية ، متدلى منها ساق بشرية مقطوعة .

وكل هذه الصور والرموز لا يمكن فهمها بغير الاطلاع على قاموس فرويد ، فان الحذاء مثلا رمز جنسى Sexual يعرض لمفسرى الاحلام كثيرا ، وكذلك كوب اللبن .

من ذلك الوصف يتضح أن الناحيــة الجنسية غالبــة فى الفن السيريالى ، ويتضح كذلك من « الفانتازية »Fantasy ان الناحيــة الشعرية غالبة كذلك . فليس من العجيب اذن أن نجد أكثر مصورى هذا المذهب يجمعون لفن التصوير فن الادب . وبالاصــح فن الشــعر ولا أعرف ممثلا لهذا اللون من الادب السيريالى — ربما على غير وعى منه — مثل جيمس جويس الاديب الايرلندى المشهور . وبخاصة فى قصته يولوسيس ، فهو فى هذا يطلق عنان العقل الباطن اطلاقا حرا تاما معتقدا أن الحرية الخالقة يجب أن تكفلها حرية مطلقة فى التعبير . ويمكننا التعبير عن هذا بأن الحرية الفنيــة ســبيلها تحطيم الحواجز القائمة بين الصــور الطبيعية والسيكولوجيــة أو على حد قول هربرت ريد عالم يختلط فيه الوعى بغير الوعى » والعالم الداخلى بالعــالم الخارجى ، وتختلط الحقيقة بالخيال ، والفكر بالعمل ، أى يكون هذا العالم صورة شــاملة للحياة جمعاء . وبينما نحن نعتقد أن النزعة السيريالية نزعة خياليــة محضــة ، يعترض أقطاب السيريالية على ذلك قائلين : انها نزعة مادية محضة . وهذا عجيب . وحجتهم فى ذلك انها بجمعها للمتناقضات أو بعبارة أخرى الروحانية تمشى جنبا لجنب مع المادية التاريخية .

عندما نتحدث عن هذه المذاهب لا يمكننــا أن نترك الحــديث عن أقطاب فى التصوير أدت وثباتهم الى ما بعدها ومنهم سيزان .

وقصة سيزان فى التصوير رائقة وطريفة ومذهبه فى التصــوير يعتبر القنطرة التى سار عليها القديم نحو الحديث ، بل اعتبرها شخصيا الفاصل بين ما هو فن وما هو مهارة فنية ...

سيزان مصور شهير من مصورى القرن التاسع عشر . وكان معاصرا للكاتب الشهير زولا . وكانا صديقين حميمين ، بل الصحيح أن سيزان لم يكن له صديق غير زولا ...

والواقع والغريب فى حياة سيزان انه اقسم أن ينتهج نهجا خاصا فى الفن لا يغيره . وأقسم كذلك أن ينقطع لهذا النهج . فاعتزل الناس، وترك صحبتهم وأبعد المرأة عن محيطه ، واخذ يمارس فى التصوير طريقة خاصة كان يؤمن بأنها هى الطريقة الوحيدة للفن الصحيح .

تلك هى البحث عن الحق ،لا عن الكمال . يقول سيزان لامه فى أحد خطاباته : « البحث عن الحق ، والحكمة ، هو الفن ، أما البحث عن الكمال فهو المهارة الفنية » . ولقد كان يعتقد أن فن زولا على فرط واقعيته ، أدب مهارة أكثر من أى شىء آخر . وكذلك احدث فى الادب « جيلا ميتا » على حد تعبيره ، وان يكن در على زولا المال والشهرة .

كانا صديقين وكانت الصداقة بينهما تقتضى الصراحة التامة ، فكتب زولا لسيزان يقول : « أنت لا شخصية لك ، فانك كسول ، عنيد » ، ونعته بغير ذلك من الالفاظ ، فاحتمل سيزان كل ذلك وأجابه بأن الشخصية الفنية غير الشخصية الخلقية . وأن الفنان يجب أن يكون صاحب مزاج Temperament

وقد انتهت الصداقة التى بينهما على طريقة شاذة ، فقد دخل سيزان ذات يوم ليزور زولا فلم يعجبه منظر الترف والابهة وخرج فلم يعد اليه ولم يشاءا أن يستعيدا صداقتهما . قال سيزان فى أحد خطاباته لامه : « لم يعجبنى اميل . مكتب عظيم وأبهة. لقدتغير. ولذلك خرجت على الا أعود اليه » .

ما المذهب الذى دعا اليه سيزان غير توخى الصدق والحكمة ؟

هذا المذهب هو الاندماج فى الطبيعة لا عن طريق العقل وحده بل عن طريق الحواس .

فمذهبه اذن مذهب حسى اندماجى كامل ، يثور على العقل ، أى يثور على الكلاسيكية ، ويدعو الى ضرب من التأمل الباطنى العميق المقرون بالحس .

هذا هو سيزان فلننظر الآن نظرة الى بيكاسو زعيم السيرياليين ، فى مقال لهربرت ريد عنوانه « انتصار بيكاسو » عرض جميل لحياة ذلك الرجل ، وعرض كذلك للمذهب السيريالى ، وكيف طبقه على فنه وحياته ! !

بيكاسو

و مع سيزان فى نقطتين :

الاولى انه يعترف انه يرسم هواه، ويقول مرة اخرى : انى ارسم مدفوعا فقط بالحب والعاطفة .

والنقطة الاخرى انه انكر استعمال العقل فى الفن ، وزاد على ذلك بأن انكر كل قيد .. ومارس الشعر والنحت والتصوير .. وكان يقول : انه من الحتم وجود الفكرة « سجينة » فى عمل أى فنان اذا كان فنـــانا حقيقيـــا ، فلا معنى للتحـدث عنهـــا . وفى ســـبيل هـذه الحرية ، اخذ يبحث عن « المجهول والقلب العارى ، والذى لم يخلق بعد ، وعن الخفايا الدفينة فى أغوار النفس » هذا هو بيكاسو ، فلنستمع الى المدافعين عنه لابريتون وجاكسوين فى المانيفستو الشهير .

يقول لابريتون : ان السيريالية ليست أساوبا جديدا ،ولا مذهبا جديدا وانما هى « فلسفة حياة » ان فى أعماق الانسانية والمجتمع وترا غنائيا ، وسنظل نطلبه الى الأبد ، وهذا الوتر هو الباطن ، الباطن الذى أتيح لقليلين أن يصغوا اليه ويضربوا عليه . فطن اليه امثـال جيتـه وبليك ووردسورت ولكن الذى كشفه حقا هم الفرويديون ، وقد شاء السيرياليون أن يجعلوا له أهمية فائقة .. فكما أن هناك ناحيـــة « طبيعية » فى الخارج فهناك ناحية اخرى فى الداخل .. فى الاحلام فى الرؤى فى التنويم ..

ويقول المانيفستو :

« ان السيريالية » سيكيولوجية اوتومابية تعبر بالرسم أو اللفظ مجرى التفكير الحقيقى ...

ولا علاقة لها بقيود الوعى ، ولا قوانين الجمال والخلق ..

انها لاتفرض وجود عالم الاحلام بل تقول : انه حقيقة أكبر ...

ويختتم بريتون المانيفستو بقوله : قال ريمبو شاعرنا السيريالى: تغير وجه الحياة . وقال غيره : نغير وجه الدنيا ، وهما النقطتان اللتان ترتكز عليهما فلسفتنا .

ولكن مارأينا الخاص ؟ رأينا ان هذه النزعة الفلسفية رومانسية متطرفة . وانها تقاوم الكلاسية من حيث أن هذه عقلية مثالية .

على ان أحكم واشهر السيرياليين لم يفتهم مطلقا أن يجعلوا فنهم مبنيا على شىء من العقل والحكمة .. وبذلك تم لهم ما نشدوه وينشـــده الفن ، واعتقد أن المستقبل لهذا المزيج ولمن يستطيع ان يقوم به .

رسالة للآباء

(الهستيريا)

بحث جديد

ان الهستريا مرض يغلب فى النساء .

قد سار بنا علم النفس الحديث نحو حقائق جديدة كل الجدة . غريبة غاية الغرابة :

وأول هذه الحقائق التغيير الكلى فى معنى هذا المرض «الهستيريا » فقد كنا لعهد حديث جدا نعلم أنه مرض عصبى منشؤه صراع عاطفى عند الذين يتصفون بضيق الوعى ، وعمق العقل الباطن . فان الاول اذا ضاق بما يحتوى ، نقل ما به بسرعة الى الباطن ، فيكدس ما نقل اليه ، واخيرا تقع الطامة ، اذ يحاول المكبوت أن يجد متنفسا ، اما عن طريق استجداء العطف والتمثيل ، واما عن طريق الجسد ، فتحدث الاضطرابات الجسدية المألوفة فى الهستيريا كالاهتزازات ، والتشنجات ، الخ ...

ولما كانت دراسة سيكولوجية المراة قد كشفت لنا أن واعية المرأة ضيقة ، وأن عقلها الباطن عميق متسع ، فقد أصبحنا نفهم لماذا كثر هذا المرض فى النساء ؟ .

وما يحدث للذات يتوقف على مقدار الصراع الدائر . وعلى مقدار التخفيف المستطاع .

وعلى كل حال فان الرجة التى تعترى الايجو تصدع بناءه . وقد يصل هذا التصدع الى درجة انقسام الشخصية وازدواجها .

هذا ملخص لمعرفتنا عن طبيعة الهستيريا فى السنوات الماضية . اما فى العصر الحديث فقد أدى ظهور اعراض الهستيريا فى الاطفال بشكل غير مألوف ، وانكشاف اعراض « هستيرية » لصيقة بأمراض أخرى كالصرع والكورية الروماتزمية — كل ذلك أدى الى استعادة البحث على ضوء جديد .

واخذت الدكتورة اودلام الطبيبة بمستشفى فكتوريا فى تناول هذا الموضوع بطريقة حديثة ، فأخذت تسأل المثقفين عن رأيهم ومبلغ فهمهم والممارسين من الاطباء عن مدى علمهم .

فكان الاتفاق عاما على أن الهستيريا ، صراخ وثورة وهياج

يبديها شخص ما ، عندما يضيق ذرعا بالحياة ، أو عندما يعترض طريقه شيء أو شخص يريد الخلاص منه .

وزاد الاطباء على ذلك ان المألوف فريقان : فريق لامرض عنده ، وانما هو يخترع مرضا لغاية ما ، وفريق له نظرة منحرفة شاذة نحو أوضاع الحياة ، تؤدى الى اضطراب عاطفى يؤدى بدوره الى أعراض جثمانية .

على ان الطبيعة المذكورة كما أكدت وجود هذين الفريقين ، أكدت وجود نوعين آخرين :

نوع يتميز بفقدان الوعى مدة تطول أو تقصر .

ونوع مصحوب بفقدان الذاكرة على درجات تتردد بين النسيان البسيط والنسيان الذى يتناول حتى الذات .

والمألوف أن الذاكـــرة تعود من بعد فقدانها . ولكن عرفت حالات لا اضطراب للعقل فيهــا مطلقــا ، وانما ذهبت الذاكرة فجأة ولم تعد قط .

وأما الاضطراب الجسدى ، الذى أشرنا اليه فمنه ما يكون تخفيفا لكبت ، ومنه ما يكون هربا من مواجهة مشكلة ما . وقد عرف عن كثيرين كثرة التبول فى غير مرض ، فهــذه الظــاهرة تعتبر كذلك وسيلة للهرب .

والعجيب أن هــذا المرض الذى ينشأ من القلق والخوف وتوتر الأعصاب يجب علاجه فى هذه الالوان من « التغطية » فيبدو المريض بالهستيريا أحيانا ، مطمئنا ، هادئا ، لدرجة غريبة من عدم المبالاة ولــكن السؤال هو هذا : كلنا نواجه من المتاعب ما لا حصر له . وكلنــا نكبت ، نعانى صراعا بين العاطفة والواجب فمن منا الذى يقع فريسة للمرض ؟ ومن منا يسلم منه ؟ .

لقد اتضح للبــاحثين اليوم أن التعريف الوافى للهســتريا هــو : « الهستريا اضـــــطراب عاطفى يصيب مرضى ذوى شـخصية خاصة » هذه الشخصية تسير بيننا ونصادفها هنا وهناك فعلينا أن نتبينهــا جيدا .

لقد سميت هذه الشخصية « بالشخصـــية الهســتيريونية » ، وهذه الشخصية نجدها عند الذين لهم عالمهم الخاص فى أعماق سرائرهم ، « يمثلون » فيه كما يشاءون ويؤلفون فيه رواياتهم الخاصة .

ولما كانت المرأة فى طبيعتها « خارجة » تلبس أزهى الثياب للزينــة ـ والزينة نوع من الاستعراض الجميل ـ وتتحلى بأجمل الحلى ولو زائفة « لتمثل » دورها الرائع فى الحياة ، فنصيبها من التعرض لذلك المرض غير ضئيل .

ولا شك أن القارىء يسأل : ولكن متى تصاب هذه الشخصــية بالمرض ؟ وهل حتما تصاب ؟

لقد اختلف الراى فى كيفية وجود هذه الشخصية ولكن السائد هو أن الانسان يولد بها . وقد يكتسبها احيانا من الوسط ، وهى فى درجاتها البسيطة كثيرا ما جاءت للوجود بالشخصيات الخالدة الممتازة بالحيوية والمرح ، والذين جعلوا الوجود فى شتى نواحى الفن والادب والاجتماع .

وقد يعيش أكثر هؤلاء بهذه الشخصية الهستريونية مستترة وبلا اعراض مرضية حتى يصطدموا بما يجرحها .

وأسوق ختام هذا الحديث للأمهات والآباء .. ان أعراض الهستيريا قد تبدو فى أية سن فيما بين الطفولة والمراهقة .

ولقد بينت سابقا أن أصحاب الشخصية الهستيريونية تبدو عليهم ملامحها مبكرة . واذا لم تتبين فى أعمال الطفل فانها تتبين فى كيفية لعبه . أما بعد نضج الادراك فان هذه الشخصية قد تصطدم بما يطبعها بطابع مرضى ؛ اما فى البيت أو فى المدرسة : ففى البيت يكون أول عامل وجود نزاع عائلى دائم أو أب سكير أو أم صخابة ، وفى المدرسة تصطدم بالمعلم القاسى الجاف أو بالرفاق العابثين .

فاذا كان الطفل خارجى النزعة فأول ما يصيبه هو أن يفقد الثقة ، ويطوى نفسه على خوف وشك ، فيغطى ذلك بالصياح والضجيج لينال أغراضه أما اذا كان باطنى النزعة فانه يلجأ الى العزلة والانفراد وقليلا ما يصاب الاطفال والمراهقون بأعراض جسدية من الشلل وفقدان الابصار والبكم .

وعلاج هاته الحالات يتوقف على فهم الأمور جيدا فيجب من أول الامر أن يفهم الوالدان أنه اذا تمكن الصبى من بلوغ أغراضه بطريقته هذه فذلك أمر فى منتهى الخطورة فعليهما ألا يمكناه أبدا .

وعليهما فى الوقت نفسه أن يفهما أن نفس الصبى مطوية على خوف . وعليهما أن يعيناه ويشجعاه على احتمال المواقف الجديدة . وفى الوقت ذاته عليهما أن يهتما بدورة حياته اليومية فى المدرسة من معلمه ومن رفاقه . وعليهما كذلك أن يعلما أن البيت الهادىء الرزين أول واق من الامراض النفسية .

رسالة السعادة

لا شك أن السعادة في حياتنا هي غاية الغايات .

ولكن ما السعادة ؟

هي كلمة من تلك الكلمات الغامضة التي لا يمكن أن نعرفها تعريفا محيطا دقيقا . كلمة السعادة ككلمة الشعر ككلمة الحب ..

يؤمن المرء بها ايمانا لا جدال فيه ، فاذا أقبل يضع يده على شيء ملموس ، وجد أنه يضع يده على شيء أثيري ... ولكن السعادة ما دامت هدفا لكل انسان ، أليس من العجيب أن يكون ذلك الهدف غير واضح ولا مشترك ؟ ولقد ألف « برتراند رسل » الفيلسوف الشهير كتابا ضخما عن السعادة ، بدأه بالبحث في أسباب الشقاء . ثم أخذ يدلل على أن السعادة انما هي في تجنب أسباب الشقاء .. وهذا منطق معقول ولكنه غير عملي . فاننا يستحيل أن نتجنب أسباب الشقاء حتى لو عرفناها . اذ كيف نتجنب منغصات العيش وأثقال الحياة ؟ كيف نتجنب الظلم المتأصل في النفوس والنفاق العريق في الطبائع والكذب الذي هو من مقررات العصر ؟...

ثم أخذ برتراند رسل يدلل على أن كل من طلب السعادة لنفسه لم يجدها وانها انما تحدث كنتيجة لاسعاد الغير . أي أن السعادة في رأيه ظاهرة انعكاسية . ولكنه لم يقل لنا ما هذه الظاهرة . ولم يقل لنا ما الطريقة لاسعاد الغير هل هي السعي في منفعتهم ؟ هل هي اشباع مسراتهم ؟ ، هل هي منع الضر عنهم ؟ ولم يقل لنا هل مجرد القيام « بالواجب » نحو الآخرين يجعلنا سعداء لانهم هم أصبحوا سعداء ، ولم يقل لنا هل الجندي الذي مات في الحرب فداء « الواجب » والرصاص يفتك به أو السيوف تخترط جسده ، هل ذلك الجندي مات مسرورا أو مات سعيدا ؟ وبالأحرى ما علاقة السرور بالسعادة ؟ وما الفرق بينهما ؟.

ولقد ألف الكاتب الشهير كوبر بويز كتابا دعاه فن السعادة ، فأخذ في مستهل الكتاب يدلل على أن السعادة « فكرة » ومن ثم هي شيء لا يعتمد على الشعور الحسي ، أي انها شيء خارج عن ملاذ السمع والبصر والشم واللمس !

واذا كانت السعادة فكرة ، يرجع الحديث بنا القهقرى الى أرسطو ، ومن طرائفه أنك لاتقول عن حيوان انه نام سعيدا . ولا عن طفل ، لأنه ليس للأولاد « فكرة » انسانية ، ولأن الطفل لم تنضج عنده الفكرة بعد . وقد يقول القارىء ، ولكن الفكرة بمعناها الدقيق « موجودة » عند الحيوان وعند الطفل ، فأعود الى أرسطو مرة أخرى ، فأراه يعني الفكرة الآتية من

جوانب الروح أو بعبارة أخرى الروح الواعية. وأعود الى أرسطو فأسائله وهل كل فكرة روحانية واعية تؤدى الى السعادة ؟ سلمنا معك أن السعادة مسألة روحانية ، وبذلك نخرجها من دائرة السرور والملاذ الحسية وما أشبه ، ولكن هل كل « نشاط روحى » يؤدى الى السعادة ؟

يجيبنا أرسطو قائلا : كلا ، بل كل نشاط روحى يؤدى الى ممارسة الفضيلة والتفوق فى ذلك ، وهو لاشك تعريف جامع عميق . ويكاد يقول لك : ان السعادة تتمثل فى الفيلسوف الذى «انقطع» لهذه الممارسة ممارسة الفضيلة .

هذا هو رأى أرسطو ، وهو رأى نبيل ، ولكن هل يمكن أن يطبق على جميع العصور ، هل ممكن لفيلسوف يمارس الفضيلة ممارسة مخلصة أن يعيش فى القرن العشرين ويسعد فى القرن العشرين ؟

سيقول قوم : انه سيكون سعيدا ما دام فيلسوفا عرف غايته وعاش لها وتخصص فيها .

ويقول كثيرون : ان أكثر هؤلاء الفلاسفة ومن شاكلهم ، لم يعرفوا السعادة فى حياتهم ، بل عرضتهم مثاليتهم لاقسى ألوان العذاب والاضطهاد فلندع أرسطو فى مثاليته ، ولننظر فيما يقول علماء النفس المحدثون . فهم يقولون : ان السعادة هى غاية الحياة ، بل غاية الغايات ، وان كل الاهداف الصغيرة مهما اختلفت انما ترمى الى هدف كبير واحد ، هو السعادة بأوفى معانيها . فننتقل فى الحال الى الحياة والهدف من الحياة . أى أن رسالة السعادة تكون مرادفة لرسالة الحياة فهل تكون الحياة قد أدت ما يطلب منها اذا اعتزلت الناس ، وعاشت فى برج عاجى تمارس فيه مثاليتها ؟ وكيف تتم هذه الممارسة فى برج عاجى ؟ ولنفرض أن قديسا بلغ قمة الفضيلة ، واعتزل فى رأس برج ، وأخذ ينظر الى الناس من أعلى ، يراهم فى أحقادهم واقتتالهم وتكالبهم على الفانى .. ماذا يكون أثر ذلك فى نفسه ؟ اما أن يرفع رأسه للسماء ، قليلا «رب أهدهم» واما أن يدير ظهره اليهم متأسفا حزينا، واما أن ينزل من برجه اليهم. والحالة الأخيرة هى التى نأمل أن يمارسها الفيلسوف بفكرة أنها فضيلة أكبر بأن يختلط القديس بالعامة ليهديهم ويرشدهم .

هناك حديث نبوى رائع مؤداه : « كلكم يغدو ، فبائع نفسه ، اما معتقها ، واما موبقها » ولا شك أن سيكولوجية الحياة السعيدة هى فى كلمة « معتقها » ، أى أن الانسان «يتكيف» مع الوسط ، فلا يبيع نفسه له ، ولا يرتكب موبقة بالثورة عليه أو الهدم من كيان المجتمع .

وبعبارة أخرى يمشى بزورقه فى ذلك البحر الخضم ، آونة هادئا ، وآونة مسرعا ، يماشى اللجج ويصانع العاصفة حتى يتعلم الناس الفضيلة ، ويأخذوا فى ممارستها ، وحتى يتعلم الناس أن الفرق بين الانسان والحيوان انما هو فى « الشعور الروحى » فقط ، عندئذ يكون قد أدى رسالة الحياة ، أى رسالة السعادة .

ولكن كيف يتكيف الانسان ؟ وما مقتضيات هذا « الميزان » ؟ .

ان الطريقة الوحيدة هي الطريقة العملية المبنية على الملاحظة والتجربة فهناك بضع قواعد أساسية للسير فى عباب أقيانوس القرن العشرين ، ويجب أن نلم بها ، وان نفهمها جيـدا • من تلك القواعد ، أن نفهم أننا نختلط بنوعين من الناس الرجال والنساء ، وان هـذا المجتمع قد برز بشطريه معا ، ولم يعد مجتمع رجال فقط ولم يعد فيه النساء مطويات فى الدور محجبات فى القصور ، فاذن عليه أن يفهم الفرق بين العقليتين ، ويدرك اختلاف النفسيتين • فاذا خاطب رجلا ، خاطب عقـله ومنطقه وبيانه ، واذا خاطب امرأة خاطب عاطفتها • هـذا مبدأ سهل بسيط ، ولكنه مجهول • وانى أدلل على ما ذكرته سابقا من أن هنـاك قواعـد أساسية مستقاة من واقع الحياة والجيل الذى نعيش فيه • وقس على ذلك كثيرا من القواعد الأخرى المقررة التى لا حاجة بنا لتفصيلها فانها معلومة للذى يستقصى ، ويدقق ، ويريد أن يتكيف مع الحياة بدون أن يفقـد شخصيته وبدون أن يبيع نفسه •

لنكن عمليين اذن ، نؤمن أن السعادة « نشاط روحى » وأن هـذا النشاط له علاقة أكبر بالخير والحق • وأن هذا النشاط يستلزم لممارسته عقلية مرنة تعطى وتأخذ ، وفى الوقت ذاته تحتفظ بطابعها •

هذه هى السعادة ، لمن أراد السعادة • والواضح أن ممارسة السعادة بعد ذلك يصبح عادة ، على شرط أن يتوافر الايمان ، ويتيسر التدريب الطويل •

النبي محمد

« محاضرة القيت في دار الرابطة الاسلامية

وجمعية الشبان المسيحيين » ..

ليس قصدى من هذا الحديث الخطير أن أستأنف مكررا معادا ، ولا أن أذكر من حياة النبى ما هو معروف مألوف .. ولــكن قصدى أن أبين للناس بعض نواح من عظمة الرسول قد تكون خافية عليهــم . ان هذه النواحى تزيد اتضاحا لى كلما علت بى السن وكلما زدت ادراكا وفهما . ولذلك كان من دأبى دائما أن أعيد تلاوة الاحاديث النبوية ، فأجدنى أرى شيئا جديدا رائعا كلما أعدت تلاوتها .

وكلما زدت تلاوة لها ، تبين لى أن الخير المحض يغلف العالم بغلاف تقصر أعيننا عن ادراكه ، حتى نكثر من قراءة هذه الاحاديث والاستغراق فى فهمها ..

قرأت حكاية لطيفة عن رجل كان يتوسم الخير دائما ، أكل الذئب غنمه ، فقال : لعله خير . ثم أكل كلبه ، فقال : لعله خير . وأكل دجاجاته فقال : لعله خير . وأخذ الجيران يطلقون كلابهم تنبحه ودجاجاتهم تصيح فى رحاب بيته فأغلق بابه ونوى الصمت . واذا بعدو يغير على الجيران فقد استدل على وجودهم بضوضائهم ، ومر ببابه وقد خيل له أنه لاأحد فى ذلك البيت الصامت المهجور .

ان هذه القوة الخيرة اختــارت من بين البشر أحبهم للخير . وحين اختارهم الله قدر عليهم الصبر والاحتمال ، وكانت عينه جل وعلا ترعاهم وتسهر عليهم . قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ان الله من أحبــه ابتلاه ، ومن صبر أجتباه ، ومن رضى عنه اصطفاه » . وان الذى يستعرض سيرة الرسول بالذات يدرك بوضــوح كيف صبر ورضى وكيف ان الله جل جلاله أنقذه فى بدر وأنقذه فى موقعة الخندق بعد أن خانه اليهود ، وباعوا أقوات المسلمين وحالفوا المشركين ، فأرسل الله على خيام هؤلاء ريحا عاتية قوضت خيامهم . ولا بد أن المتتبعين للسيرة النبوية يعلمون أن أول الانصار فى المدينــة هم الاوس والخزرج وان أصل القبيلتين من اليمن وانهما نزحا الى هناك على أثر حلم سخيف رأته فى نومها زوجة أحد زعماء القبائل . فكأنما نزح القوم الى هناك وهم من هم قوة وشجاعة وشهرة ، ليكونوا فى انتظار النبى عند بدء الدعوة . هذه ليست مصادفات ، وانما هى عنايات ربانية يجب أن ننظر اليها بعين الفهم والتفكير .

على أن هاته العنايات الربانية والاسرار الروحانية لم تكن تصرف

النبى عن التفكير فى تعمير الارض وتجميلها والعناية بها ، فانه هو الذى قال «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» .

هذا هو بالضبط المبدأ الذى دعا اليه نيتشه فيما بعد . مبدأ السوبر مان ، وهو قائم على أن الانسان لا يحب الا أن يدمن التفكير دون نهاية فيما وراء الموت ، وان هاته الارض يجب أن تأخذ حظها من تفكير أهلها . وقد كان دعاء النبى هكذا : « اللهم انى أعوذ بك من ذنب يمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أى الأمل الذى يأل الانسان مستغرقا فيه حتى ينغمس فى حياة حالمة خيالية لاجد فيها .

وقد ذكر ان المسيح مر على جبل فرأى شيخا يعبد الله فى الحر والبرد ، فقال الرجل : « ياروح الله اخبرنى الانبياء من قبلك انى لأعيش أكثر من سبعمائة عام فلم يختر عقلى أن اشتغل بالعمارة عن طاعة ربى » فقال عيسى : « يأتى فى آخر الزمان أمة لاتجاوز أعمارهم مائة عام . . يبنون القصور » .. وهو قول بليغ جدا .. وشرحه أن الشيخ قد عبد الله حتى نسى أن يبنى شيئا ، وسيأتى قوم ينفقون أعمارهم — على قصرها — فى بناء القصور ..

لا هذا مستحب ولا ذاك .

على أن الصلة الروحية التى بين الله وأصفيائه تقوم عليها أدلة كثيرة . أضرب المثل بالدعاء . وهل كانت المعجزات غير دعاء ؟

جاء فى الحديث الشريف : « دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب : دعوة المظلوم ، ودعوة المرء لاخيه بظهر الغيب » .

ومن العجيب فى عصرنا الحاضر ، ما يجرى فى قرية تدعى لورد تقوم المعجزات فيها على أسرار هذا الدعاء النافذ . وهذا السر هو ما كان يهمس به النبى الى أصفيائه وينصحهم ألا يلقنوه السفهاء لئلا يتوصلوا به الى الضرر .

نقل الدكتور كاسل الجراح المشهور عيادته الى قرية لورد ، وتأكد له شفاء المرضى هناك بين يوم وليلة ، فلما سئل عن ذلك قال : انى علمت أن الدعاء يشترط فيه ألا يكون للداعى بالذات ، ويشترط أن يكون بايمان تام واندماج كامل . ولما سئل عن رأيه فى كيفية الشفاء قال : ليس بغريب ان الجرح الذى قد يستغرق شفاؤه مائة عام ، يختصر الله زمن شفائه فى ساعات .

قرأت أن موسى وجد رجلا يدعو مرارا فلم يجب الى سؤاله . فقال يا رب لو أجبته فأجاب الله جل جلاله : « انه بخيل يدعو لنفسه » فأخبره موسى بذلك ، فدعا لنفسه ولغيره فأجاب الله دعاءه .

ورأى موسى رجلا يبكى ويتضرع فقال : « يا رب لو كانت حاجته بيدى لقضيتها» فأوحى الله الى موسى : «أنا أرحم منه به» ولكنه يدعونى وقلبه عند غنمه . وأنا لا أستجيب لمن يدعونى وقلبه عند غيرى » .

والآن ، وقفة قليلة عند بعض « الدساتير » التى جاءت فى الاحاديث الشريفة :

قال أبو ذر : يا رســـول الله أوصنى ، قال : « أوصيك بتقوى الله فهذا رأس الامر كله • قلت زدنى قال : قل الحق وان كان مرا ، قلت زدنى قال : لا تخف فى الله لومة لائم • قلت زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فانه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دينك • قلت زدنى قال عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتى ••»

وانى لأقف من كلمة « الرهبانية فى الجهاد » وقفة المذهول ، فقــد سبق القول : « لا رهبانية فى الاسلام » ولكن الجهاد شىء آخر يحتـــاج لزهد الرهبان وحرمانهم وتضحياتهم • يحتـــاج لكل ما يجعل المجاهد يعتزل ويتنسك ويتجه نحو الله • لا يمكن أن يوصف ما هو مطلوب فى الجهاد بأروع مما جاء فى الحديث الشريف •

وانظروا الى الصراحة العجيبة فى الحديث الشريف « حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة •• هـــذا قول نبى مرسل • ولكنه صريح صراحة عجيبة ، ولنقارن بين أقواله وأقوال أصحابه، قال أبو بكر : « حبب الى الجلوس اليك ، والصلاة عليـــك ، وانفاق مالى عليك •• »

وقال عمر : « حبب الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واقامة الحدود » •• وقال عثمان : « حبب الى ثلاث : اطعام الطعام وافشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام » • • وقال على : حبب الى ثلاث : « الضرب بالسيف ، والصوم فى الصيف ، واقراء الضيف » •

كان النبى مع أصحابه فى سفر ، فأخذوا يذبحون شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر على طبخهــــا •• فقال النبى : وعلى أن أجمع لكم الحطب ••

وبمناسبة هذا التواضع العظيم قرأت أن سليمان كان على بساط الريح فأخذه الزهو والعجب ، فأراد السرير أن ينقلب ، فقال له سليمان استقم ، فأجاب السرير : استقم أنت أولا !

هذا قليل من كثير من السيرة المحمدية العظيمة ، أرجو أن يحفزكم الى المزيد من قراءتها والامعان فى أسرارها ، والسلام ••

خـــاتـمة

قد استعرضت في هذا الكتاب ألوانا من الأدب وألوانا من الحياة ، وألوانا من مشاكل الناس صغارهم وشبابهم وكبـــارهم • وحاولت ما وسعني الجهد أن أجد لكل مشكلة حلا ، ولكل داء علاجا • وقد رجعت الى أطباء النفوس من قديم ، وما زلت أمشي عبر التاريخ منحدرا الى الحاضر أسائل هذا ، وأتحدث الى ذاك ، لعلى أقع على الحقيقة •

واين الحقيقة ؟ •

هناك حقيقتان : الحقيقة الصغرى التى نصل اليها بعقولنا فى المدى الضيق الذى نصل اليه عن طريق الحواس • والحقيقة الكبرى التى نصل اليها — أو لا نصل — بقدر ما نمنح من وعى باطنى ، واحساس لا يتصل بالعقل ولا بالحواس •

ونحن — بنى البشر — قد عشنا الى اليوم نستخدم حواسنا ووعينا وعقولنا ، ولا نستخدم غير هذه • وقد خيل لنا أننا وصلنا ، ولكن في الوقت الذى عددنا ذلك ، أى عند بلوغ القمة ، اعترفنا ان هـــذه القمة سفح من السفوح •

وقد حاول أكبر علماء الغرب أن يرجعوا الى أسرار الشرق ، فضاق علماء النفس المحدثون ذرعا بما وصلوا اليه • واعترفوا أن حدود علم النفس ضيقة جدا • وانه فى اليوم الذى نعتقد أن التعمق والتحليل والاستقصاء قد بلغت بنا طريق الفهم والسعادة ، نرى فجوة بيننا وبين المعرفة الكبرى وفاصلا هائلا بيننا وبين الحقيقة اللانهائية حتى لقد نصح دوموند شو ، الكاتب المشهور ، قراءه بأن يتعلموا كيف يكبحون جماح الوعى ، أى ان الانسان منا يجعل وعيه فضاء تاما لبضع لحظات ، أعنى بمنعه من التفكير والتأمل على الاطلاق ، فى هذه اللحظة ، يتصـــــل العقل الباطن بعقل لا نهائى ، ويلاحظ الذين مارسوا ذلك وبرعوا فيه ، أن الالهامات تتوالى وتتهادى فى صفاء وسطوع •

واذن فقد انتهى العلم الى نوع من التصرف ، أو بعبارة أخرى شعر بقصور باعه • وبحاجته الى ذلك « المجهول المطلق » الذى هو وحده طريق المعرفة ، وطريق السعادة ، وبيده سر الحياة •

فليكن شعارنا اذن أن نبحث عن الحقيقة ، مستعينين بعقلنا ومنطقنا على شرط أن نعترف بحدودنا ، ونؤمن بالقوة الخالقة التى تمدنا بالصبر والأمل وتوجهنا للخير والسعادة •

فهرس

هيئة قناة السويس

حركة البضائع

زادت كميات البضائع التى عبرت القناة خلال شهر اغسطس سنة ١٩٦٢ بمقدار ٨٢٤٫٠٠٠ طن أى بنسبة ٥ر٥ ٪ (١٥٫٦٧٤٫٠٠٠ طن فى اغسطس ١٩٦٢ مقابل ١٤٫٨٥٠٫٠٠٠ طن فى اغسطس ١٩٦١) .

حركة البضائع من الشمال

بلغت كميات البضائع العابرة من الشمال الى الجنوب خلال شهر اغسطس سنة ١٩٦٢ ، ٢٫٣١٥٫٠٠٠ طن مقابل ٢٫٧١١٫٠٠٠ طن فى اغسطس ١٩٦١ بنقص قدره ٣٩٦٫٠٠٠ طن أى بنسبة ٦ر١٤٪ ، ويرجع ذلك الى انخفاض كميات المواد البترولية والمعادن المصنوعة والاسمدة والسكر .

وقد بلغت كميات المواد البترولية خلال شهر اغسطس سنة ١٩٦٢ ، ٣٠٣٫٠٠٠ طن مقابل ٤٦٠٫٠٠٠ طن فى اغسطس سنة ١٩٦١ بنقص قدره ١٥٧٫٠٠٠ طن أى بنسبة ٣٤٪ ويعود هذا النقص الى انخفاض كميات البترول الخام بمقدار ١٢٩٫٠٠٠ (١٧٨٫٠٠٠ طن مقابل ٣٠٧٫٠٠٠ طن) والمازوت بمقدار ٢٤٫٠٠٠ طن (٣٩٫٠٠٠ طن مقابل ٦٣٫٠٠٠ طن) والبنزين بمقدار ١٩٫٠٠٠ طن (١٫٠٠٠ طن مقابل ٢٠٫٠٠٠ طن) والكيروسين بمقدار ١٫٠٠٠ طن (٢٧٫٠٠٠ طن مقابل ٢٨٫٠٠٠ طن) بينما زادت كميات السولار والديزل بمقدار ٣٣٫٠٠٠ طن (٤٩٫٠٠٠ طن مقابل ١٦٫٠٠٠ طن) .

وبالنسبة لمناطق شحن المواد البترولية فقد صدر الاتحاد السوفيتى ما يعادل ٩١٪ من تلك المواد أما بالنسبة لمناطق التفريغ ، فقد استقبلت اليابان ما يعادل ٤٧٪ والجمهورية العربية المتحدة ٢٤٪ والهند ١٥٪ .

ونقصت كميات البضائع الاخرى عدا المواد البترولية بمقدار ٢٣٩٫٠٠٠ طن أى بنسبة ٦ر١٠٪ (٢٫٠١٢٫٠٠٠ طن مقابل ٢٫٢٥١٫٠٠٠ طن) .

وقد سجلت كميات البضائع الرئيسية النسب الآتية ، زيادة أو نقصا ، عن مثيلاتها فى اغسطس سنة ١٩٦١ :

الحبوب	+	١٠٩٪
الاسمنت	+	٤٩٪
الآلات	+	٣٢٪

السكر	—	٧٦ ٪
الاسمدة	—	٥١ ٪
المعادن المصنوعة	—	٤٠ ٪

حركة البضائع من الجنوب

سجلت كميات البضائع التى عبرت القناة من الجنوب الى الشمال خلال اغسطس سنة ١٩٦٢ زيادة قدرها ٠٠٠ر٢٢٠ر١ طن أى بنسبة ١٠٪ (٠٠٠ر٣٥٩ر١٣ طن فى اغسطس ١٩٦٢ مقابل ٠٠٠ر١٣٩ر١٢ طن فى اغسطس سنة ١٩٦١) .

وترجع هذه الزيادة بصفة رئيسية الى زيادة كميات المواد البترولية والخامات والمعادن والحبوب وخامات النسيج والسكر .

فقد بلغت كميات المواد البترولية التى عبرت القناة خلال اغسطس ١٩٦٢ (٠٠٠ر٢٥٣ر١١ طن مقابل ٠٠٠ر٣٢٧ر١٠ طن فى أغسطس ١٩٦١) بزيادة قدرها ٠٠٠ر٩٢٦ أى بنسبة ٩٪ ، وهذه الزيادة ترجع الى كميات البترول الخام قد زادت بمقدار ٠٠٠ر٦٧٤ طن (٠٠٠ر٢٣٤ر١٠ طن مقابل ٠٠٠ر٥٦٠ر٩ طن) والمازوت بمقدار ٠٠٠ر١٨٥ طن (٠٠٠ر٥٣٨ طن مقابل ٠٠٠ر٣٥٣ طن) والسولار والديزل بمقدار ٠٠٠ر٣٧ طن (٠٠٠ر٢٧٩ طن مقابل ٠٠٠ر٢٤٢ طن) والبنزين بمقدار ٠٠٠ر٨٤ طن (٠٠٠ر١٧٠ طن مقابل ٠٠٠ر٨٦ طن) بينما نقصت كميات الكيروسين بمقدار ٠٠٠ر٢٣ طن (٥٠٠٠ طن مقابل ٠٠٠ر٢٨ طن) .

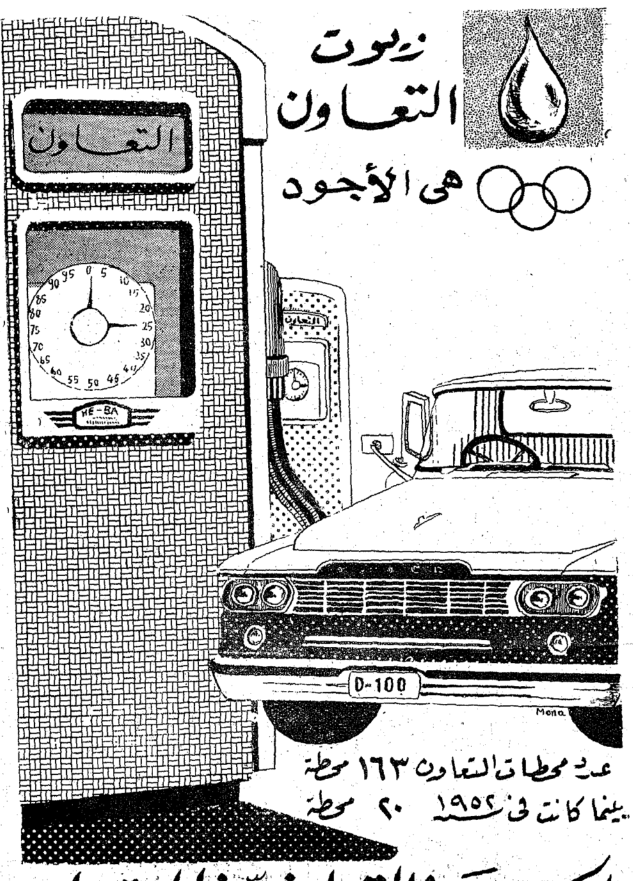
وقد بلغ المتوسط اليومى لكميات المواد البترولية خلال الشهر الحالى ٠٠٠ر٣٦٣ طن (٠٠٠ر٥٤١ر٢ برميل) مقابل ١٢٩ر٣٣٣ طنا (٩٠٣ر٣٣١ر٢ برميل) فى اغسطس ١٩٦١ .

وتمثل المواد البترولية نسبة قدرها ٨٤٪ من مجموع كميات البضائع العابرة شمالا بينما كانت هذه النسبة ٨٥٪ فى اغسطس ١٩٦١ .

وزادت كميات البضائع الاخرى عدا المواد البترولية بمقدار ٠٠٠ر٢٩٤ طن أى بنسبة ١٦٪ (٠٠٠ر١٠٦ر٢ طن مقابل ٠٠٠ر٨١٢ر١ طن) .

وفيما يلى نوضح نسب الزيادة أو النقص فى كميات البضائع الرئيسية مقارنة بمثيلاتها فى اغسطس ١٩٦١ :

الحبوب	+	٥٠٪
السكر	+	٢٩٪
خامات نسيج	+	٢٠٪
المعادن وخاماتها	+	٦ ٪
النباتات الزيتية	—	٣٢٪
المطاط	—	٢ ٪

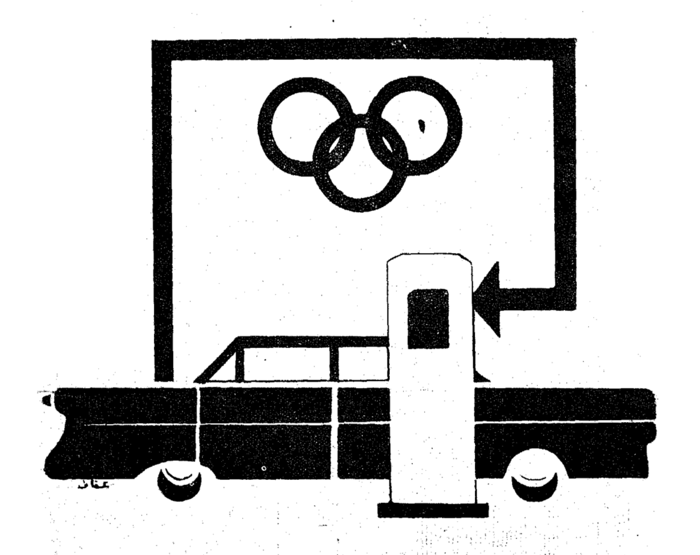

زيوت
التعاون
هى الأجود
التعاون
HE-BA
D-100
Mona
عدد محطات التعاون ١٦٣ محطة
بينما كانت فى سنة ١٩٥٢ ٢٠ محطة

الجمعية التعاونية للبترول

التعاون

في خدمتكم

دائما



أعظم شبكة من محطات خدمة وتموين

١١٧٣ محطة



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤٢٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ١٧٩ الثمن ١٢ قرش